الكتاب الثانى

جهاد واستقلال

« نعم سيصبح الوطنيون عبيداً إذا انهزموا. ولكن شتان بين الرق بعد الجهاد، والرق بدون جهاد: فهذه أمة جاهدت ثم قضت نحبها، وتلك أمة ماتت ميتة حقيرة بدون جهاد! »

مصطفى كمال

obeikandl.com

obeikandl.com

مذبحة ازمير

مؤتمر الصلح الأعلى مجتمع فى باريس

ولسن ولويد جورج وكليمانصو وارلاندو يبتون فى مصير العالم

وفى ٦ مايو سنة ١٩١٩ يسعى فنزيلوس سعيه المشهور فيخوله مؤتمر الصلح حق احتلال ازمير احتلالا عسكريا تحقيقاً لمطامع اليونان فى الأناضول

وتصدر الحكومة اليونانية منشورا تقول فيه ان احتلال ازمير العسكرى اعتراف شرعى بمطالب اليونان فى غربى آسيا ، وانه حادث عظيم له مغزى جليل ، لأنه جرى بموافقة جميع الدول العظمى . . .

وبذلك يرفع الستار عن أول مهزلة من سلسلة المهازل التى عرفت بشروط ولسن وحق تقرير المصير ، وتثبت الدول التي احتلت تركيا أن صلح مودروس ليس الا بداءة تطول بعدها مواده وتقصر حسب الحاجة . وتثبت انجلترا بصفة خاصة أنها لا تعرف « كلمة الشرف » فى قاموسها السياسي والحربى

وفى ١٣ مايو سنة ١٩١٩ ينزل الجيش اليونانى ـ فى حمى اسطول الحلفاء ـ لاحتلال ازمير

أهل استامبول يجتمعون فى مسجد السلطان احمد ويهتفون : « ازمير للاتراك ! » ولا يعترفون بهذا الاحتلال الذى قذفه عليهم مؤتمر الصلح

أما حكومة الداماد فريد فلا تحرك ساكنا

وأما الخليفة فمن رأيه التسليم على طول الخط . وهو لذلك يوفد بعثة شاهانية إلى والى ازمير تبلغه أن أمير المؤمنين وظل الله فى الأرض قد قضت ارادته بألا يدافع الجنود عن المدينة فاحتلالها لا شك مؤقت ، وانجلترا دولة صديقة تسعى لما فيه خير المسلمين ! !

والآن ننتقل الى ازمير : فماذا نرى ؟

نرى الاميرال كالثورب الانجليزى يصدر أمره الى قائد حصون ازمير بوجوب اخلائها . ثم يبعث بمذكرة الى الوالى ينبئه فيها بقرار مؤتمر الصلح . ثم يطلق سراح الذئاب اليونانيين على ما يشبه القطيع من سكان المدينة العزل ، فيدخلون المدينة هاتفين : « زيتو فنزيلوس ! » ثم يهرعون الى الثكنة العسكرية حيث الحامية التركية

التي سلمت سلاحها فيطلقون عليها النيران . . فيحاول أحد الضباط الاتراك رفع الراية البيضاء فتصرعه طلقة من ضابط يونانى . . .

ثم يصدر الامر بنقل الحامية التركية الى قطع الاسطول البريطانى ، فيسير جنود الحامية فى الطرقات صفوفا متراصة . فيتفكه اليونانيون بقتلهم الواحد تلو الآخر فلا يصل إلى الاسطول الا عدد قليل ! !

فاذا ضربنا صفحاً عن تلك المأساة فهاهى ذى مآس أخرى أشد هولا وأقسى عذابا : فهؤلاء جنود يونانيون يرون احدى المحصنات تجرى فى الطرقات باحثة عن وحيدها ، فيتكاثرون عليها ويمزقون ثيابها ويعتدون على عفافها اشنع اعتداء وحشى وهى تصرخ وتولول . . .

وهذه امرأة حامل : يبقر اليونانيون بطنها ويستخرجون منه الجنين فينتقمون منه قبل أن يولد ! !

وهؤلاء جنود يقتحمون المنازل ويقتلون ويعذبون وينتهكون الحرمات تحت سمع الانجليز والفرنسيين والايطاليين والامريكيين وبصرهم . . .

ثم يتشدقون بعد ذلك بأنهم انبل أهل الأرض محتداً وأعظمهم رفداً

الوطنيون يصدرون كتاباً بالفرنسية يسجلون فيه وحشية اليونان وتواطؤ الحلفاء معهم ، ويقدم استجواب عن تلك الفظائع فى مجلس العموم البريطانى ، فتتألف لجنة من الجنرال هار الانجليزى ، والجنرال نيوسكى الفرنسى ، والجنرال دلوليو الايطالى ، والاميرال برستول الامريكى للتحقيق فى فظائع اليونان . ولكننا نتساءل : هل ثبتت التهمة على أحد ، وهل حكم على يونانى واحد بالاعدام أو ما هو دون الاعدام ؟ !

ولا تكاد تعود لجنة التحقيق الى اسطول الحلفاء حتى يعود اليونان الى أعمال القتل والسلب وهتك العرض . فاذا ما فرغوا من ازمير نراهم فى القرى المجاورة وخاصة فى منيمين حيث يعيدون تمثيل مأساة ازمير ويذبحون من الاتراك ما يربى على الألف بين طفل مسكين وشيخ كبير وعجوز محطمة وحامل وبكر ، ولا يدعون منزلا واحدا حتى يقتلوا من فيه ممن لم يفروا الى القرى المجاورة ، وحتى ينتهكوا أعراضاً عزيزة

فلنسدل الآن على هذه المأساة ستار النسيان !

تركيا الممزقة . .

ماذا بقى من الامبراطورية العثمانية ؟
أملاكها الشاسعة أصبحت أثراً بعد عين
وها هى ذى بلادها تمزق وتوزع على الحلفاء الظافرين :
فمنطقة البوغاز لانجلترا . وأزمير وما حولها لليونان
ومنطقة قونية وأنطاكية وما حولها لايطاليا
والجنوب الشرقى من تركيا لفرنسا
والمنطقة الشمالية الشرقية للأرمن
وللأتراك ما بقى بعد ذلك !

وليت الأمر يقف عند هذا الحد . بل ان ما بقى بعد ذلك كان مرتعاً خصباً للجواسيس والجمعيات الهدامة التى أنشأتها العناصر المسيحية :

فهناك جمعية « موديرا » وجمعية الصليب الأحمر اليونانية ، وجمعية الكشافة اليونانية ، وجمعية الروم وعلى رأسها البطرك ساوين أفندى ، وجمعية « بونتوس » فى طرابزون وسمسون ، وجمعيات أخرى فى ديار بكر وبتليس والعزيز ، وجمعية تدعو لانفصال الأكراد عن تركيا ، وجمعية أصدقاء الانجليز فى استامبول وعلى رأسها وحيد الدين والداماد فريد ووزير الداخلية وغيرهم ـ وكان القس « فرو » أهم أعضائها العاملين ـ وجمعية أصدقاء الامريكان ، وو الخ . .

وتألفت الى جانب هذه الجمعيات جمعيات أخرى وطنية تعمل على مناهضة الدس والدساسين ، نذكر منها جمعيات ادرنة ، وتراقية ، وباشا على ، وأرضروم ، والعزيز ، وطرابزون ، وأوف ، ولازستان ، وأزمير الخ الخ . . ولكن هل كان لهذه الجمعيات برامج وطنية تسعى لتحقيقها بالوسائل العملية ؟ كلا . بل إن منها ما وضعت برامج لا تكاد تعقل ، كجمعتى تراقيا الشرقية والغربية اللتين عولتا على نيل الاستقلال بمساعدة انجلترا وفرنسا ! ! وأما سائر الجمعيات الاخرى فكان رائدها انقاذ ما يمكن انقاذه مع الاعتراف ببقاء الاحتلال

وفى هذا الخضم الزاخر بالجمعيات كان الوطن ينتحر ! وكنت لا تسمع فى استامبول الا النقاش البيزنطى ، وكثر أدعياء السياسة فأصبح كل نكرة من هلافيت

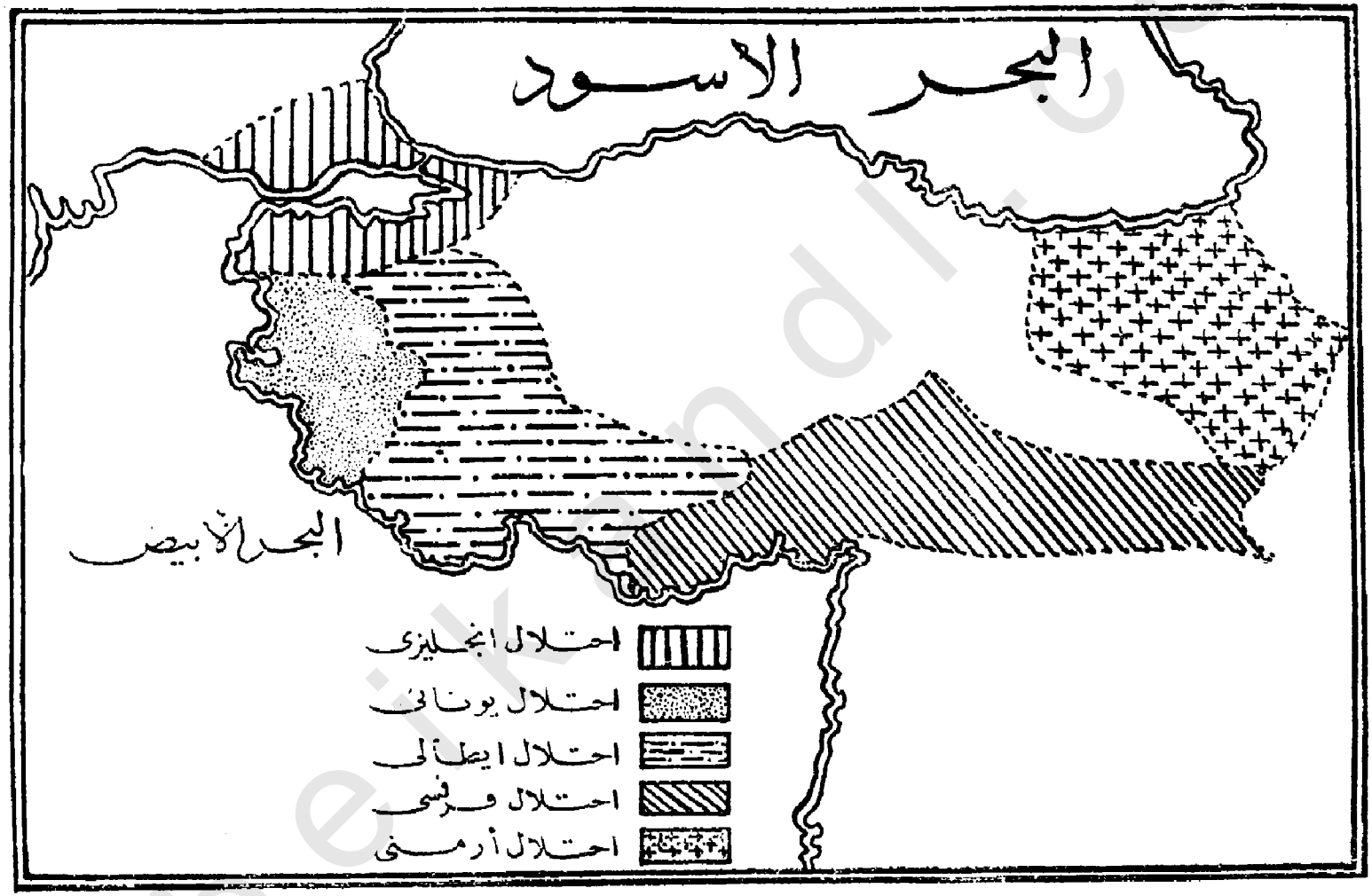
البحر الاسود
البحر الأبيض
احتلال انجليزى
احتلال يونانى
احتلال ايطالى
احتلال فرنسى
احتلال أرمنى

العاطلين يتشدق بوجوب الاعتراف بالحالة الراهنة والبقاء تحت نير الاحتلال حتى تستقر الأمور ، ثم تشرع الحكومة فى مفاوضة الحلفاء واقناعهم بأحقية المطالب الوطنية ، كأن المفاوضة قبل الحرب تؤدى الى استقلال أو ما يشبه الاستقلال !

أما الجيش فكانت فلوله مازالت قائمة فى قونية وأفيون قره حصار وديزلى وأنقرة ونجدة وأزمير وباليكسر وبورسه وبندرمة وسيواس وأرضروم وديار بكر وكان أشبهها بالجيوش المنظمة جيش كاظم قره بكير فى أرضروم

يد القدر

لم يعد عن الثورة من محيص

معجزة القرن العشرين توشك أن تتم

دعاة الاحتلال يسخرون من دعاة الثورة ويتهمونهم بالجنون

وحكومة الداماد فريد تسلم للمحتلين كل شىء . والخليفة منكمش فى قصره وقد عول على الرضا بما قسم له وقنع من امبراطورية آل عثمان بعرش يجلس عليه فى بلد محتلة أرضه ، محتلة مياهه ، محتلة سماؤه

الثوار (المجانين) يؤلفون العصابات حول كل بلد احتله الحلفاء واليونانيون . والاسلحة تهرب اليهم من حيثما وجدت وتحت أنف الحرس الانجليز

وحتى اللصوص وقطاع الطرق يتوبون الى الله عما أسلفوا وينضمون بعصاباتهم المسلحة الى عصابات الثائرين !

وأما قلب الاناضول فلا يكاد ينبض . ولكن الثورة مكبوتة فى صدور المجاهدين فى انتظار الزعيم

فأين هو الزعيم ؟

ما كان يخطر ببال أحد أنه شخص معين بالذات ، فقد يكون كمالا ، وقد يكون كاظم قره بكير ، أو رءوفاً ، أو غير هذا وذاك من قواد الجيش ووزراء الدولة السابقين

أنا لا أشك فى أن كل رجل من هؤلاء كان يفكر فى الثورة . بيد أن كمالا الثائر كان أسبقهم الى العمل المنظم

انه يذهب الى السراى ويقابل وحيد الدين مقابلة سرية فيعرض عليه الخليفة

وظيفة « مفتش عام لشمال الاناضول وحاكم عام للولايات الشرقية » ويصدر اليه الأمر بالسفر الى الاناضول وتسريح بقية الجيش العامل فيه والقضاء على حركاته الثورية

ولكن لماذا اختار وحيد الدين كمالا دون غيره ؟

هنا يقف المؤرخ متحيراً ولا يسعه الا أن يقول : هى يد القدر تعمى البصائر . . وهى دبلوماسية بارعة من مصطفى كمال الداهية !

ومن عجب أن تعمى بصيرة الانجليز عن بطل الدردنيل الذى دحرهم قبل أربعة أعوام فتوافق القيادة الانجليزية الآن على ايفاده فى تلك المهمة الخطيرة ، وكأنها تقول للهشيم فى الاناضول : هاك النار فاشتعل !

مصطفى كمال يودع أمه وداعاً عاجلا ويذهب الى وزارة الحربية فيزورها زيارة قصيرة ، ثم يستقل السفينة وفى صحبته رأفت بك قائد الجيش الثالث فى سيواس ، الى مياه البحر الاسود ، الى شمال الاناضول

وبعد أن يفلت الصيد من الشباك يتنبه الخليفة الى غفلته ، والانجليز الى غلطتهم ، فيصدر الامر الى مصطفى كمال بالرجوع ، ولكن هيهات ! فقد وصل الى ميناء سمسون فى ١٩ مايو سنة ١٩١٩ ، فلما وجدها تحت الاحتلال العسكرى غادرها الى الداخل

وفى مدينة أفزاعلى جنوب سمسون تبلغه أنباء الاحتلال اليوناني لأزمير وما ارتكب فيها من فظائع وآثام ، فيعقد من أهل المدينة حفلا يقوم فيه خطيباً ـ لأول مرة فيما نعلم ـ ويحض الاتراك على الثورة والدفاع عن الوطن والاعراض ، فتنهمر الدموع من المآقى ، ويتطلع اليه الجميع فى أمل يعتوره اليأس . .

وينقل الجواسيس أقواله الى الانجليز فى سمسون ، فيخابرون السلطات العليا فى العاصمة ، فيصدر الامر بالقبض عليه ، ولكنه يفلت من قبضتهم إذ يفر الى أماسيا حيث لا احتلال ولا سلطة عسكرية ، وهناك يتنفس الصعداء ويشعر بحرية القول والعمل ، فيخطب فى الجماهير كل يوم ، ـ بل كل ساعة ـ حاملا على الانجليز حملة شعواء ، داعياً أبناء وطنه الى الثورة والقتال

ولكن أية ثورة ! وأى قتال ! وأين هو المال ؟ وأين الرجال ؟

مصطفى كمال لا يعرف المستحيل . ولذلك نراه يبادر فيدعو كلا من رأفت وعلى فؤاد ورءوف ـ الذى استقال من وزارة البحرية وأخذ يؤلف العصابات حول أزمير ـ

فيجتمع الاربعة فى أماسيا ـ وينضم اليهم عارف صديق مصطفى كمال الحميم ـ ويقررون:

١ ـ تنظيم جيش للدفاع عن أزمير وما حولها بدل العصابات غير المنظمة

٢ ـ بث روح الثورة فى جميع المدن والقرى وانشاء مراكز لتدريب المتطوعين وجمع المال وتوفير الاسلحة والذخائر

٣ ـ تقسيم الاناضول الى ثلاث مناطق دفاعية : فالمقاطعات الشرقية من نصيب كاظم قره بكير ، والغرب من نصيب على فؤاد ، والقلب يشرف عليه مصطفى كمال

٤ ـ اقامة حكومة مركزية للدفاع عن البلاد لاتكون لها صلة بحكومة السلطان . على ان لايتم تأليفها الا بعد استشارة نواب يمثلون البلاد تمثيلا لاشائبة فيه

الخليفة سجين ! فهلموا معنا !

الزملاء يتفرقون كل الى جهة . ومصطفى كمال يجوب القرى حول اماسيا وقد انتعشت آماله ووطد عزمه على الثورة وقتال المحتلين

انه يرى فى المستقبل المظلم قيام الثورة فى كل مكان . وقتال اليونانيين الذين راحوا يتقدمون بجحافلهم وذخائر الحلفاء شطر قلب الاناضول . . وانتصاره عليهم .. وامعانه فيهم قتلا واسراً . . وامعانهم فى الهرب . . واملاءه شروط الصلح على الحلفاء .. وخروج الحلفاء من تركيا .. وتحيتهم للعلم التركى الظافر .. وقيام الحكومة الكمالية فى انقرة . . والغاء السلطة والخلافة . . واعلان الجمهورية . . والسير بتركيا فى معارج الرقي حتى تصبح دولة كبيرة ذات خطر . . .

يرى كل ذلك بعين البصيرة فيزيل من أمامه تلك العقبات التى تتحدى قوة البشر ، ويغالط نفسه فلا يرى هذا الشعب المحطم والحكومة الخائنة والخليفة الخائن والفقر والبؤس واليأس . . . وبهذا الروح نراه يخطب فى الناس فيقول لهم ان الانجليز ـ اعداء الشرق والاسلام ـ وطدوا العزم على القضاء على تركيا ومحوها من عالم الوجود ـ تركيا الخالدة ، تركيا المجاهدة ، تركيا حصن الدين وسيف الاسلام . . وان اليونان سيقيمون فى قلب الأناضول حكومة ودولة . . وان الخليفة أسير فى استانبول ولا يملك من الأمر شيئاً ، ولو أنه كان مطلق السراح لصاحبه فى رحلته تلك ولكان أول من ينادى بالثورة وحمل السلاح فى وجه العدو الغاصب . . والدليل المادى على أسره

أنه لم يحتج على فظائع ازمير ـ مع أن هذا الاحتلال تم بموافقة الخليفة ، وأنه هو نائب الخليفة وممثله جاء يحض الناس على اعلان الحرب الدينية والجهاد المقدس . . « فثوروا لكرامتكم ،ودافعوا عن عرينكم ، وعن دينكم ،وعن أعراضكم الملوثة ، وتطوعوا فى الجيش الاهلى لتقهروا اعداءكم واعداء الاسلام . . . »

يا للعجب !

ان هذا الرجل النحيل الشاحب الوجه يحرك كتلا صماء من اليأس والخور . . والحماسة تخلق مما يكاد يشبه العدم . . والجنود والضباط المتقاعدون يبعثون من هنا ومن هناك ، ويهرعون الى حمل السلاح ـ وأى سلاح ! والى تدريب مئات المتطوعين وآلافهم !

ثم ينتقل من آماسيا الى ارضروم ، وهناك يقول : « ما بالكم لا تثورون ؟ ألا تعلمون أن انجلترا اللعينة وعدت الأرمن بجمهورية ارمنية تقام على انقاض ولايتكم وعلى قبوركم ! ؟ » فتفعل هذه الكلمة فى الجماهير فعل السحر فيهبون للدفاع عن بلادهم ومقاومة الجمهورية الأرمنية المنتظرة . .

وفى ارضروم يتقابل الرجلان الكبيران : كمال وكاظم قره بكير ، فيطلع كمال زميله على قرارات آماسيا فيوافقه عليها ، ثم يغادر كمال البلدة ويطوف بالقرى المحيطة بها لتنظيم القوات الدفاعية ، داعيا الضباط والجنود الى عدم تسليم اسلحتهم للحكومة لأنه ـ باعتباره ممثلا للخليفة ـ يأمرهم بذلك

وبعد بضعة أيام تصله رسالة برقية من السلطان يأمره فيها بالعودة . . . فيذهب الى مكتب التلغراف ويبرق الى خليفة المسلمين داعياً اياه الى الأناضول لقيادة جيش الخلاص . ويظل ينتظر الرد الى الصباح . فيصله رد مقتضب يأمره بالعودة الى العاصمة على جناح السرعة ! !

فهل كان كمال يريد ـ أو يتوقع ـ قدوم الخليفة لقيادة جيش الخلاص ؟ اللهم كلا . . فهو يريد أولا وقبل كل شيء أن يثبت للملأ أن الخليفة لم يعد يملك من الأمر شيئاً ، وأنه سجين فى استانبول ، وأنه لولا ذلك لما أمره بالعودة الى العاصمة وهو الذى أوحى اليه سراً بوجوب الثورة والجهاد . وعلى ذلك فهو يرد على الخليفة قائلا انه سيظل فى الأناضول حتى تنال البلاد استقلالها ، وانه يستقيل من الجيش ويشرع فى الثورة كمواطن بسيط

نواب الامة يقررون الجهاد

للواطن مصطفى كمال يدعو نواب الأمة الى ارضروم لعقد مؤتمر عام يقررون فيه مصير الوطن

ولا يكاد النواب يصلون الى ارضروم حتى يوجه دعوة عامة الى سائر جهات الأناضول يقول فيها : « ان كيان الوطن أصبح معرضاً للضياع . ولما كانت حكومتنا المركزية واقعة تحت مراقبة الدول المتحالفة ، فقد استحال عليها الوفاء بالعهود التى قطعتها على نفسها . ومثل هذه الحالة تظهر افلاس الأمة ـ لا قدر الله . .

« بيد أن استقلال البلاد مازال موكولا الى عزم الأمة وارادتها . ولابد لذلك من قيام هيئة وطنية لا تخضع لتأثير أو مراقبة حتى تصلح حال الأمة وتفرض حقوقها على العالم أجمع . لذلك صممنا على عقد مؤتمر وطني عام فى سيواس ـ على أن يصل أعضاؤه فى أقرب فرصة مستطاعة

« فعلى كل لواء عثمانى أن ينتخب ـ بغاية السرعة ـ ثلاثة أعضاء أكفاء وأن يوفدهم الى سيواس . . الخ الخ . . »

ثم ينصح الأعضاء المنتخبين بالتكتم والتنكر عند المرور فى البلاد الواقعة تحت الاحتلال . أما عن نواب مؤتمر ارضروم ، فيقول انهم سينضمون الى المؤتمر العام فى سيواس بمجرد فراغهم من أعمالهم المقررة

ولا يكتفى مصطفى كمال بدعوة نواب الأناضول الى سيواس ، بل يعمل على أن تنتخب تركية أوربا نواباً عنها ، ولذلك نراه يبرق الى جعفر طيار بك قومندان الفرقة الأولى فى أدنة بهذا الخصوص ، قائلا : «تعلمون أن الدول المتحالفة تعمل على القضاء على استقلالنا والتمهيد لانقسام الشعب التركى الى شيع واحزاب ، ولما كانت حكومتنا المركزية واقعة تحت الأسر ، فقد أصبح تسليم زمامنا لها تسليما بالفناء والانقراض ـ معاذ الله . . ولذلك اعتزمنا عقد مؤتمر سيواس الخ الخ . . »

ولا يكاد مؤتمر أرضروم يعقد أولى جلساته ، حتى يصدر أمر الخليفة الى كاظم قره بكير بالقاء القبض على مصطفى كمال وترحيله الى العاصمة .. وبفض مؤتمر ارضروم بالقوة . .

لماذا ؟ !

لأن مصطفى كمالا ثائر متمرد . . لأن عطف الخلفاء لا يقابل بهذا الجحود . لأن الداماد فريد الذى يفاوض الخلفاء لا تتاح له المفاوضة والاناضول ثائر . . لأن الأمر أصبح فى يد الخليفة حامى الاسلام والمسلمين ومعلى كلمة الحق والدين ، فمن هو هذا الأهوج الطائش الذى يثور ضد الخلفاء اصدقاء الخليفة ؟

مصطفى كمال فى خطر : فالقبض عليه معناه سوقه الى العاصمة مكبلا فى السلاسل ، والقاؤه فى غيابة السجن ـ ان لم يحكم عليه بالاعدام

والثورة التى يمهد لها فى خطر : مثل مؤتمر ارضروم بالقوة قضاء على الحركة الوطنية فى مهدها ، ولن يجسر أحد على عقد مؤتمر آخر بعد ذلك . .

النواب يعاودهم الخوف والشك فى نجاح الحركة الوطنية . والآمال الذهبية التى أحياها كمال فى قلوبهم توشك أن تنهار . . .

وكاظم قره بكير رجل الساعة والقابض على مصائر الوطنيين يتراوح بين الخضوع الأعمى لأوامر الخليفة ، وتلبية نداء الواجب . .

والحق يقال أن ساعات من الشك المريب فى نجاح الحركة الوطنية تمر به فتنغص عليه حياته وتكاد تحمله على اعداد حبل المشنقة لجمهرة الثائرين . .

ولكنه وطنى قبل كل شىء . وكمال الداهية يضرب له على الوتر الحساس كلما جلس اليه ليقوى من عزيمته ويرجح فيه كفة اداء الواجب الوطنى على كفة طاعة أوامر الخليفة . .

وأخيرا ـ وبعد أيام من اليأس القاتل والشك المريب تتهلل الوجوه بعد اصفرارها ، وتعود القلوب الى وجيبها بعد أن كادت تصعق ، فكاظم قره بكير ـ الرجل ذو القلب الكبير ـ يعصى أوامر الخلافة ويلبى نداء الواجب !

ويجتمع المؤتمر فى اليوم التالى وقد بلغت حماسة الأعضاء حدها ، وسرعان ما يقررون انتخاب مصطفى كمال رئيساً لهم وقائدا لثورتهم . .

ومن العجب أن ينتخب هؤلاء الأعضاء كمالا لرئاسة المؤتمر وقيادة الثورة وهم الذين كانوا لا يطيقون أن يرأسهم أحد . .

إنهم يقدرون كمالا حق قدره ، ويدركون أنه هو ـ دون غيره ـ رئيسهم وقائد ثورتهم المقبلة . ولكن شيئاً من الغيرة والتوجس يأبى عليهم أن ينتخبوه للرئاسة : فوجهه النحيل الضامر ، وعينا الذئب ذواتا البريق الرهيب والتألق المخيف ، وأقواله

المعسولة التى كانت تبدى ما تحت عسلها من سم اعتزم أن يصبه فى فم الخليفة صبا . . وأخيراً تلك اليد الحديدية التى يلوح بها فى الهواء . . آه . . ما أغرب طباع البشر !

انهم يرون رأيه فى الثورة ويتحمسون لها . ولكن ثمة قدساً من الأقداس تقشعر أبدانهم من مجرد التفكير فيه : فالخليفة ـ مهما تكن نقائصه ـ هو الخليفة . . وامره ـ مهما يكن جائراً ـ هو من أمر الله . . وعصيان الخلافة كالكفر بالله . . ومبتور هو ذلك المهند الذى يشهر فى وجه حامى حمى الدين وخليفة المسلمين !

بيد أن المعجزة تتم اذ ينتخب كمال للرئاسة كما اسلفنا . ولا عليه بعد ذلك اذا كان الأعضاء قد تسرعوا فى انتخابه ، فهو الآن رئيسهم ، وهو الآن رئيس لمؤتمر اقليمى سوف يتبعه مؤتمر قومى ، وليس مجرد « مواطن » لا صفة رسمية له

مصطفى كمال الرئيس يعتلى منبر الخطابة ليشكر الأعضاء على جميل صنعهم ، فيقول ـ بعد عبارات الشكر المألوفة : « ان من المحال أن يرى وطنى ما حاق بالوطن من كوارث ونكبات ثم لا يثور . . وان الوطنيين ألقوا سلاحهم بعد أن اطمأنوا الى انصاف الظافرين ـ وكان فى مقدورهم أن يقاتلوا حتى يقتلوا ـ أو ينالوا حقوقهم ـ بيد أن اطمئنانهم الى انصاف الاقوياء استحال الى تسليم وخضوع أعمى من جانب الحكومة المركزية . ثم استغل الحلفاء هذا الخور والتسليم أسوأ استغلال اذ اقتسموا الغنيمة فيما بينهم ومزقوا تركيا شر ممزق ، ثم أطلقوا اليونان على قرى الأناضول الآمنة ليعيثوا فيها فساداً ولينتهكوا أعراض الترك ويدوسوا على حقوقهم وما يقدسون . وإن الحكومة المركزية التى قبلت كل ذلك انما هى حكومة لا تخضع لاشراف ممثلى الشعب بعد أن أغلق مجلس المبعوثان واحتل الحلفاء العاصمة . وان الحلفاء معذورون فى انتهاكهم حرمات الأمة : فهم ظافرون ، والاتراك منهزمون ، وعروق الوطنية لم تعد تنبض بالوطنية . . ولاجرم يقسمون تركيا الى أملاك ارمنية ، وأخرى يونانية ، وثالثة انجليزية ، ورابعة فرنسية ، وخامسة ايطالية . . يريدون بذلك أن يذلوا وطنا لم يشهد الاذلال منذ ستمائة وخمسين عاماً وصل فيها الى حدود الهند شرقا . والنمسا غربا ، والروسيا شمالا ، وقلب افريقيا جنوباً . . فوا أسفاه على امبراطورية تنهار ، ومجد يهوى الى حضيض الذل ، وفخار ينقلب شناراً واسترقاقا ! »

وكأنه يخشى أن تؤثر هذه الأقوال فى الأعضاء عكس التأثير المطلوب . . لذلك تراه يعرض حال الشرق المنكوب بعد الحرب العظمى : ويبدأ بمصر فيصف ثورة

المصريين بعد نفي زعيمهم وصحبه الى مالطة . ثم يعرج على الهنـد فيصف ثورتها وجهادها في سبيل الاستقلال . ثم يعرض الثورات في سوريا والعراق ، ويذكر جهـاد افغانستان والقوزاق وآذربيجان وكورجستان . فاذا اطمأن الى أن قلوب الأعضاء بدأ يدب فيها دبيب الحياة ، نراه يصف الحالة الدولية وصفاً اجماليا ، ويخص الروسيا الشيوعية بالشرح الطويل وكأنه يرى فيها حليفة المستقبل . .

وأخيراً نراه يصف استامبول المحتلة وخروج الوطنيين منها بعد أن ثقل عليهم نير الاحتلال ، ويقول ان بقاء الرجال المسئولين في العاصمة أمر غير معقول ، وانهم اذا صمموا على البقاء فيها فمعنى ذلك أنهم سوف لا يعملون شيئاً ، ولذلك وجب قيام حكومة ثانية في الأناضول . .

وأخيراً يقول الرجل النحيل ، الضامر الوجه ، ذو العينين البراقتين :

« وفي ختام خطابي ابتهل الى الله واهب الآمال الذي لم ينس أمتنا التي دافعت عن هذا الوطن المبارك وهذا الدين الأحمدي الجليل ـ وستدافع عنهما الى يوم القيامة ـ والذي لم ينس جل شأنه مقام الخلافة والسلطنة . . ابتهل اليه أن يدفع بنا الى النصر والتوفيق بعد أن اخذنا على عاتقنا الدفاع عن حقوقنا المصونة المقدسة . . آمين ! »

كلام غريب ! . ولعل أغرب ما فيه ذكر الخلافة والسلطنة في معرض الابتهال الى الله !

النواب تملأ قلوبهم الحماسة الدينية المشبوبة فيصفقون طويلا ويهتفون بحياة الرئيس . . ثم يقررون باجماع الآراء :

١ ـ تنظيم الدفاع عن الوطن ومناهضة الاحتلال

٢ ـ اقامة حكومة مركزية وطنية في الاناضول

٣ ـ انتخاب من يمثلهم في مؤتمر سيواس

الى سيواس ...

مؤتمر سيواس يوشك أن ينعقد

مصطفى كمال رئيس مؤتمر أرضروم في عمل دائم ليل نهـار : فهو على اتصال مستمر بوالي سيواس مصطفى رشيد باشا يصدر اليه الأمر تلو الأمر في وجوب التمهيد

لعقد المؤتمر . وهو على اتصال دائم بحسبي افندى قاضى سيواس يحاول اقناعه بأن ليس ثمة خطر من عقد المؤتمر فى سيواس . ثم إنه يبرق الى قائد الفرقة الثالثة فى سيواس قائلا ان مؤتمر أرضروم صادف نجاحا لم يكن ينتظر منه ، وان قراراته قوبلت بحماسة شديدة ، وان دول الاحتلال لم تر فيه خروجا على المألوف . فهذا وطن يأبى أن ينتحر ويعمل على الخلاص من ربقة المحتلين . وكأنه يخشى أن يضعف القائد اذا حان حين العمل فنراه يهدده بأن كل من لا يتحمس لمؤتمر سيواس إما أن يكون جبانا ، وإما أن يكون خائناً . . ولا يكتفى بذلك بل يبرق ويكتب الى مئات من وجوه المقاطعات وأعيانها حاثا اياهم على وجوب الجهاد بأساليب تناسب كلا منهم ، وان فى هذه الأساليب ما يصل الى الذروة فى البلاغة وقوة الحجة ، وما تتفطر منه القلوب وتسيل الدموع ، ويذكى فى القلوب نارا . .

وفى كل يوم ترى مثلا عليا للتضحية والوطنية :

فهذا شباب يقبل على كمال ويطرح بين يديه حياته ومستقبله . وذاك وجيه يطرح أمامه ثروته . وتلك امرأة تراه فتبكى وتعده بالمساهمة فى الجهاد . وأولئك القرويون السذج يتطوعون فى جيش الخلاص أو يتبرعون بجانب من محصول أراضيهم للجنود

وهناك فى استامبول : البلد المحتل نرى فى بهيم الليل ، ومن وراء ستار ، فصولا لأروع مأساة عرفها القرن العشرون : فأنباء مؤتمر أرضروم تصل الى العاصمة فيسخر منها فريق المتخاذلين ويتحمس لها المجاهدون . وانك لترى ألوانا من التجسس والغدر لا تتاح لك رؤيتها الا فى مثل تلك الأيام السود . فاذا ما تغلغلت فى صميم القلوب السليمة وولجت أبواب المنازل رأيت آيات من البطولة الفذة :

فهنا جماعة من الشبان يجلسون حول مائدة عليها المصحف والسيف ويقسمون على الموت أو الحياة الحرة . .

وهناك جماعة تهرب الأسلحة الى الأناضول . . فاذا سألتنا : كيف ؟ قلنا والله لا نعلم ، ولا يتاح لنا أن نعلم . .

وفى غرفة مظلمة اختنقت بدخان اللفائف يجلس شاب تركى نحيل تتدلى على جبينه خصلة من الشعر نابليونية ، ويروح يصف لأحد مراسلى الصحف الأجنبية أو الملحقين بالسفارات الأجنبية أحوال الثورة ويدافع عن حقوق الوطن ويصف كمالا وصحبه بأنهم أبطال يجب الدفاع عنهم والمساهمة معهم فى الجهاد . ولا يكاد يفرغ من

حديثه حتى يتحمس الأجنبي للقضية التركية ويخرج من الغرفة وقد آلى على نفسه أن يساهم فى الجهاد مع المساهمين .

وهذه فتاة يلح عليها خطيبها فى وجوب عقد الزواج ، فتصيح فى وجهه : « أى زواج والوطن ينتحر ! » . . ثم تراها واقفة أمامه كاللبؤة الثائرة وقد جحظت عيناها وتشعث شعرها وراح صدرها يعلو ويهبط ، وتسمعها وهى تهيب به : « أن جاهد مع المجاهدين ، ومت مع الشهداء ان كانت فيك رجولة وكان فيك رجاء . . ! »

آلاف من هذا الشباب وهؤلياء الفتيات تراهم وتراهن فى كل مكان وان لم يظهروا فى أى مكان . والثورة جياشة فى الصدور وان لم يبد منها شيء على الوجوه . وصفحة البسفور والبحر الأسود ترى سفناً وقوارب صيد عتيقة تحمل زهرة الشباب التركى فى لباس النوتية ، وتحمل الأسلحة والذخائر تحت طبقة من الغلال أو الفاكهة أو شباك الصيد

والآن نعود الى سيواس لنرى النواب وهم يتقاطرون على المؤتمر من كل فج ، وفيهم الضابط المتقاعد والعامل والسياسى والتاجر والقاضى وشيخ العشيرة : هـذا بلباسه الأوربى ، وذاك بلباس رجال الدين ، والآخر باللباس الوطنى القديم . وترى فيهم حليق اللحية ومطلقها ، والعصرى المتسامح والمحافظ المتعصب . .

كل أولئك يصلون الى سيواس بعد جهد جهيد وتعرض لأخطار لا عداد لها . بل ان كمالا نفسه ينجو من خطر القبض عليه بأعجوبة ويصل الى سيواس حيث يتصل بالنواب قبيل عقد المؤتمر ، فيرون فيه الذئب النحيل الضامر ذا العينين المتألقتين ، ويسمعون منه كلاماً هائلا ما كانوا ينتظرونه ، فيتحمسون ، ثم يجبنون ، ثم يعاودهم التحمس ، وأخيراً تستقر نفوسهم حيث الحماسة ولـكن الغيرة والتوجس يأكلان قلوبهم . . .

ويعلم النواب أن اميركا أوفدت مندوبا عنها الى سيواس ليحضر المؤتمر ويوقف الحـكومة الامريكية على حقيقة الحال فى الأناضول ، كما يعلمون أن فرنسا وايطاليا تنظران بعين العطف الى الثورة التى توشك أن تشتعل ، فيعجبون أيما عجب ولا يعلمون ان هذا العطف مصدره ذاك الشاب التركى النحيل ذو الخصلة النابليونية الذى يقضى ليله ساهراً فى حجرته المظلمة المختنقة بدخان التبغ فى استامبول . .

المؤامرة

وينعقد المؤتمر فى سيواس

وفى أول جلسة من جلساته يشعر كمال بأنه أمام نواب شديد مراسهم طويلة مناقشاتهم يمقتون الرئاسة أشد المقت وفى نفس الوقت يلحون فى طلب الرئاسة ذات الارادة الفولاذية !

حدثنى أحدهم فقال : كنت أمقته . . ولكنى كنت أراه أصلح الموجودين لقيادة الثورة ، ولذلك انتخبناه رئيساً . .

وحتى كاظم قره بكير : الرجل الطيب الذى عرفه قائداً فى القوقاز ونفذ أوامره بدقة ، نراه يطلب اليه بالحاح ألا يوقع على مراسلات المؤتمر بامضائه

بيد أن كمالا يتجاهل كل ذلك وينبرى على المنبر خطيباً ، فيشكر للاعضاء اشتراكهم فى المؤتمر ، ويقص عليهم قصة الوطن المنكوب من يوم توقيع صلح مودروس الى الساعة التى يخطب فيها ، فيستمع اليه النواب فى اعجاب يبلغ حد القداسة ، حتى اذا ما راح يحدثهم عن الصدر الأعظم فريد وعن رحلته المشئومة الى باريس لتسجيل الفناء على تركيا نرى الثورة متجلية فى نظراتهم وهتافاتهم : ليسقط الخائن ! فاذا قال لهم ان فريداً استنكر الحركة القائمة فى الاناضول ـ بل كذب حدوثها رسمياً ـ لعنوا فريدا وحكومة فريد وكل من يشد أزر فريد . .

ويختم كمال خطابه بكلمة عن وجوب توحيد الجهود والجمعيات الوطنية المتعددة ، ويقول ان الأمر صدر بالشروع فى الانتخابات الحرة ، فعلى النواب أن يصمدوا فى الميدان « وستتحقق آمالكم باذن الله . . »

وبعد دقائق معدودات تصل الى كمال برقية من كاظم قره بكير يقول فيها ان أحد جواسيس الانجليز ـ ويدعى البكباشى نويل ـ ذهب الى ملاطية للقيام بين الاكراد بدعاية واسعة النطاق ضد الحركة الوطنية ، وان أسرة بدرخان وأسرة جميل باشا تعملان مع هذا الجاسوس بايحاء من حكومة فريد

مصطفى كمال يقرأ هذه البرقية على أعضاء المؤتمر ، ويبين لهم خطورة المؤامرة : فهذا جاسوس انجليزى يعمل بأمر من حكومة استامبول على اثارة الاكراد والهجوم بهم على سيواس والفتك بأعضاء المؤتمر الذى يضم خيار الوطنيين . . فهل هم بعد ذلك

فى حاجة الى دليل مادى على خيانة الحكومة القائمة فى استامبول ؟

ثم نرى رجل الحرب ينطلق من مؤتمر السياسة الى حيث يتحدث مع جمال بك قومندان الفرقة الثانية عشرة الجيالة فى منطقة ملاطية ، فيعلم منه ان والى العزيز وقد على ملاطية حيث قابل نويل مقابلة طويلة . . فيسأله عن عدد الحامية التركية فى ملاطية ، فيعلم أنهـا لا تزيد على عشرين رجلا . . فيأمره بالقبض على المتآمرين ، فيعتذر بعجزه عن ذلك . فيصدر كمال أمره الى الياس قومندان العزيز وإلى قوات خربوط وسيورن وسيواس بالهجوم على ملاطية ، وتكاد هذه القوات تقبض على المتآمرين لولا فرارهم على ظهور الجياد فى جنح الليل . .

ويجد الضباط الأتراك فى المكان الذى غادره المتآمرون ستة آلاف جنيه ذهباً كانت أعدت لرشو رؤساء العشائر الكردية !

ويعود رجل الحرب الى مؤتمر السياسة بعد أن يكون قد وحد القوات الوطنية فى منطقة ملاطية والعزيز وسيواس وأمرها باجتثاث حركة الأكراد من أصولها . يعود ظافراً ويطمئن رجال السياسة على حياتهم وعلى مؤتمرهم ، فيعترفون بفضله ورئاسته ، فيحثهم على ارسال احتجاج شديد اللهجة الى الخليفة فيوافقونه على رأيه باجماع الآراء

ويرسل رشيد باشا والى سيواس خطاباً شديد اللهجة الى وزير الداخلية التركية يحتج فيه على مؤامرة ملاطية ، فيرد عليه وزير الداخلية بقوله ان المؤامرة تمت بموافقة الخليفة وتوقيعه « رغبة منه فى المحافظة على سلامة الوطن ! »

ليسقط الخفاش الاسود !

مصطفى كمال دائب على تحرير العرائض والاحتجاجات . فهذه عريضة طويلة يرفعها الى الخليفة باسم مؤتمر سيواس مستنكراً فيهـا عمل الحكومة على الايقاع بالوطنيين ، مما يؤدى الى اهراق دماء المسلمين وضم الأكراد الى صف انجلترا ، ويطلب فى آخرها تحقيقا شاملا ينجلى بعده الجو وتنقطع الدسائس

ثم نراه يحرر احتجاجاً شديد اللهجة يطلب فيه من الخليفة اسقاط وزارة الداماد فريد « بعد أن ثبتت خيانتها وعملت على الدس وبذر العداوة بين القوميات العثمانية »

ولا يكتفي بذلك بل يصدر باسم المؤتمر نشرة عامة للجمهور يتهم فيها الحكومة بتأخير اصدار قانون الانتخابات والموافقة على احتلال اليونانيين لطوروس وما جاورها في مذكرتها التمهيدية لمعاهدة سيفر . . فيكون لهذه النشرة أثر شديد في اثارة الرأي العام الذي هتف من صميم قلبه بوجوب اسقاط الخفاش الأسود الداماد فريد . .

مصطفى كمال يكاد يظفر بتأييد الرأي العام بعد أن ظفر بتأييد نوابه . وهذا التأييد يحمله على توجيه احتجاج ناري جديد الى الخليفة يحمل فيه على الوزارة الخائنة، ويلقي عليها تبعة الكوارث التي حاقت بالبلاد ، ويلعن الداماد فريد « الذي يفاوض الحلفاء في باريس بلسان ، وينشر الاباطيل في العاصمة بلسان آخر » والذي يتجاهل الحركة الوطنية القائمة في الاناضول في مفاوضاته مع الحلفاء ، والذي يأمر بتسريح بقية الجيش العامل في الاناضول حتى لا تقوم للوطن قائمة قط . . وأخيراً يطالب الخليفة بوجوب اسقاط الحكومة الخائنة واصدار قانون الانتخاب الحر . .

وفي الوقت نفسه نراه يوجه منشوراً عاما الى أهل استامبول وفي هذا المنشور تتجلى قدرته البيانية التي لا تبارى : فهو يقول ان لاستامبول فخر السبق والمبادرة الى الثورة . وان الثائرين اتخذوا الأناضول مركزاً لثورتهم لا لشيء الا أنها بعيدة عن هيمنة الحلفاء . ثم يتحدث عن سياسة الداماد فريد الخارجية ـ تلك السياسة المدمرة التي لاتبقي على شيء يسمى الوطن ، والتي تحرف فيما تنشره من مذكرات المعاهدة المشئومة حتى لا يطلع الأتراك على ما تبيته لهم من ذل وأسر . ثم يسهب في ذم سياستها الداخلية ويتهمها بالخيانة والدس والعمل على اغتيال الوطنيين وتشتيت شملهم . ويختم منشوره بكلمات من نار يقول فيها ان مسيو كلمانصو قال لفريد باشا عند وداعه له : ان على الأمة التركية أن تعلن عن وجودها اذا كانت تتشدق بوجوب الاستقلال « فيا أهل استامبول ! ساهموا في أداء الواجب الوطني حتى يكون لنا وجه للاعتراض على أعمال وزارة فريد باشا . . فان العالم سيقول ـ اذا لم نحرك ساكنا ـ : لم لم يستعمل هذا الشعب حق الاعتراض على حكومته في الوقت المناسب ؟ وان له بعض الحق في قوله هذا ، فنبينا يقول : كما تكونوا يولى عليكم . . . »

الصحف التركية في العاصمة تنشر هذا المنشور فيدوى كالقنبلة .. وأهل العاصمة يأنفون البقاء على الضيم واخوانهم يجاهدون في قلب الاناضول، فماذا تراهم يفعلون ؟

ان الاجتماعات تعقد . والأدعية تلقى في المساجد . والشبان يتسللون الى الاناضول

بكثرة هائلة . والشاب النحيل ذو الخصلة النابليونية يكاد لا يخرج من غرفته المختنقة بدخان السجاير . وان أخبار المجاهدين فى سيواس تصله عن طريق جماعة من الفدائيين راحوا يحملون الرسائل بين سيواس والعاصمة . . آه ! ان هؤلاء الرسل أعرفهم ، وان لهم لمفاخر ترفعهم الى مرتبة كبار المجاهدين . .

وبعد بضعة أيام يلقى كمال قنبلته الثانية اذ يوزع على سفراء انجلترا وفرنسا وأمريكا وايطاليا والصرب والسويد والدنمارك واسبانيا منشوراً مختوما بخاتم مؤتمر سيواس ، ينص على أن حكومة الداماد فريد التى تفاوض الحلفاء فى مصير الأمة ، لا تمثل الامة فى شىء ، وانه ريثما يتم تأليف وزارة وطنية لا يكون الوطنيون مسئولين عن أعمال الحكومة الراهنة ، فان اقرار المعاهدة لا يتم الا بتوقيع حكومة وطنية عليها ـ حكومة تمثل الأمة خير تمثيل . وان الحركة الوطنية القائمة فى الاناضول لن تمس حقوق الدول الاوربية بسوء

* * *

قنبلتان فى الصميم . .

الخفاش الاسود يشعر بدنو الخاتمة ، بيد أنه لا يسلم ، فها هو ذا فى حضرة مولاه وحيد الدين وبين يديه خطة مدبرة لمؤامرة رهيبة . .

انتصار مؤقت

الخفاش الاسود يقدم لوحيد الدين خطته السوداء : فالوطنيون الثائرون جماعة قليلة لا خطر لها . ووحيد الدين ما زال السلطان والخليفة . وأمره لا شك مطاع . والانجليز يسرهم أن يعمل الخليفة على القضاء على الثورة قبل استفحالها . فاذا قضى عليها قدم الخفاش الاسود معاهدته لشعب لا أمل له الا فى الحياة الوادعة بعد أهوال الحرب وكوارثها . وسرعان ما ينسى الشعب ماضيه ـ وما أسرع نسيان الشعوب الشرقية !

والخفاش الأسود يضع بين يدى مولاه منشوراً شاهانياً يطلب منه التوقيع عليه لينشره فى طول البلاد وعرضها . فيوقعه الخليفة

وفى اليوم التالى يذاع المنشور الشاهانى فيقرأه المتعلمون ويستمع اليه الأميون . .

الخليفة يعلن أسفه على هذا الخلاف الذى شجر بين العثمانيين بسبب نكرة من النكرات يريد الخروج على الحكومة ومعاكسة القائمين بأمر المفاوضة مع الحلفاء .. ويقول ان هذا الخلاف يؤخر اجراء الانتخابات مما يزيد المشاكل تعقيداً . . « وانى انتظر من سائر افراد الأمة أن يقدروا دقة الموقف وأن يحترموا القوانين والأحكام ويطيعوا الحكومة القائمة طاعة عمياء فيخيبوا أمل كل من سولت لهم نفوسهم بذر الفتن والقلاقل بين صفوف الأمة . . . »

قنبلة لا شك فيها يقذف بها الخفاش الأسود كمالا ومؤتمر سيواس . ولو أنها جاءت قبل عقد المؤتمر وتوزيع نشراته فى سائر الانحاء لختمت على الحركة الوطنية بخاتم التخاذل الابدى . ولكنها لسوء حظ الخفاش الاسود ـ تنشر بعد أن وقف الخاص والعام على كل شىء ، ولذلك فهى تمر دون أن تصيب أحداً بسوء ، شأن كل زيف ينشر بعد أن تتفتح الاذهان الى الحقائق السافرة

أعضاء مؤتمر سيواس يجتمعون ليردوا على منشور الخليفة ، فيقولون إن مطالبهم لا شك شرعية ، وان فريدا لاشك خائن ، وان هذا الداهية لا شك يخفى عن مولاه حقيقة المطالب الوطنية ويصورها له كأنها أعمال قوم ثائرين متهورين . ويختمون رسالتهم بالمطالبة باسقاط الوزارة واعتماد وزارة وطنية يحق لها أن تمثل الأمة أمام مؤتمر الصلح

ولا تكاد هذه الرسالة تذاع حتى تنهال برقيات التأييد على المؤتمر من ولايات طرابزون وارضروم ووان وبتليس وديار بكر وخربوط ودرسم وسيواس وسامسون وملاطية ومرعش وعينتاب وقيصرية وانقرة وقره مان وافيون قره حصار ودكز لى

ثم ان على فؤاد قومندان انقرة يسير بقواته الوطنية الى اسكى شهر حيث يحاصر الانجليز فيعلنون رغبتهم عن القتال وينسحبون الى سامسون طالبين اليه ألا يتعرض لهم بأذى ما داموا لا يعتزمون اعلان الحرب على الوطنيين

وفى تلك الاثناء يقول مسيو لولون مندوب السفارة الفرنسية فى استامبول لأعضاء مؤتمر سيواس ان فرنسا ستقف موقف الحياد التام ازاء حركات الوطنيين

ويصل بعده الجنرال هربرت الامريكى فيؤيد باسم حكومته أعمال المؤتمر ، ويثبت للسفارة الامريكية ضعف الحكومة القائمة وعدم تمثيلها للبلاد تمثيلا صحيحاً

وبعد أيام تبرق سائر السفارات الاجنبية الى حكوماتها متنبئة بقرب سقوط الداماد

فريد ، مستندة الى ما تراه من قوة الرأى العام الذى لم يؤثر فيه منشور السلطان

كل هذا يعرفه الوطنيون ويذيعونه فى انحاء البلاد . فتزداد الحماسة اشتعالا ويكاد نور الوطنية يغشى عينى الخفاش الأسود

والخليفة يخشى سوء المغبة فيوسط عبد الكريم باشا للتفاهم مع مصطفى كمال — باعتباره رئيسا لمؤتمر سيواس !

وحيد في أنقرة !

عبد الكريم باشا جالس أمام آلة التلغراف فى استامبول

ومصطفى كمال جالس أمام آلة التلغراف فى سيواس

عبد الكريم باشا يرجو أن يفض النزاع القائم بين السلطنة والوطنيين وأن يتم الصلح بين الفريقين

فيرد عليه كمال قائلا ان الحركة الوطنية لم تكن فى وقت من الاوقات موجهة ضد السلطنة والخلافة ، فهدفها الوحيد أولئك الذين باعوا وطنهم وخانوه من أمثال فريد باشا وسائر وزرائه . ثم انه يأسف اذ يرى الخليفة مغمض العينين ازاء خيانة رئيس وزرائه ، واذ يرى رئيس الوزراء يحاول أن يشوه من جمال الحركة الوطنية بقوله انها حركة بلشفية ، فى الوقت الذى يسمح فيه للانجليز باحتلال الاناضول . . ثم يقول : « فهل كان يبقى فريد باشا فى الحكم دقيقة واحدة اذا كانت لديه ذرة من الحمية والوطنية ؟ »

عبد الكريم باشا رجل طيب القلب . . ولكنه رجل فارغ . والنقاش يتخذ شكلا انشائياً لا تميزه وجهة نظر خاصة ، فهو لا يزال يلح فى ضرورة فض النزاع والصلح بين الطرفين مع أن النقاش البرقى ظل قائماً ثمانى ساعات متوالية . .

اجابات كمال البرقية تحمل الى السلطان فيرى أن العاصفة تكاد تنقلب اعصارا لا يبقى ولا يذر ، فيستدعى فريداً ويقيله ويعين مكانه على رضا باشا . . .

ولا تكاد الاقالة تبلغ سيواس حتى يصدر كمال نشرة عامة يبشر فيها الأمة بانقضاء عهد الخفاش الاسود . ثم يقدم مطالب الوطنيين الى الصدر الأعظم الجديد ، وهى تنحصر فى الاعتراف الرسمى بقرارات مؤتمرى ارضروم وسيواس ، وعدم التعاون

مع الحكومة حتى يتم انعقاد المجلس الوطنى الكبير الذى سيقرر مصير الأمة وينتخب من يمثلها فى مفاوضة الحلفاء.

***

قانون الانتخاب يصدر . والانتخابات تجرى فى جو هادىء ، فيفوز الوطنيون بأغلبية ساحقة ، ويكون معظم أعضاء مؤتمر سيواس نواباً فى المجلس الجديد

مؤتمر سيواس لا يزال قائماً . وهو ينتقل الى انقرة ليتخذ لنفسه مقراً يتوسط ولايات الاناضول

ومصطفى كمال نائب ارضروم فى المجلس الجديد يذهب الى انقرة ليجس النبض

ما بال النواب تلهيهم النيابة عن شئون وطنهم الرازح تحت نير الاحتلال ؟

وما بالهم يهمون بوجوب العودة الى استامبول وعقد المجلس الجديد هناك تحت انف الاسطول البريطانى الجاثم فى مياه الدردنيل ؟

وما بال بعض ذوى القلوب المريضة يقولون بوجوب حل مؤتمر سيواس لأنه لم يعد له كيان حكومى معترف به بعد الانتخابات الجديدة للمجلس الجديد ؟

وهل يقف الوطنيون فى أول الطريق اذ ينالون أول نصر تافه يصادفهم ويعمون عن المستقبل المبهم ـ المستقبل الذى ينذر بالحرب وويلات الحرب ؟

مصطفى كمال يتصور جلسته فى شرفة المجلس القديم فى استامبول حيث رأى وسمع النواب وهم يؤيدون حكومة توفيق باشا على حساب وطنهم ، فيتساءل : هل يعود السياسيون الفارغون الى عهد التردد والهزيمة ؟

انه جندى . وانه يرى الجندى أصلح من السياسى لقيادة السفينة فى خضم الحادثات الهائج

ولكن النواب من رجال السياسة لا يقرونه على رأيه . بل انك لتسمع من بعضهم كلاما غريباً ما كان ينتظر من قوم كانوا الى الامس القريب ينادون بوجوب قيام حكومة ثانية فى الاناضول تعمل مستقلة عن حكومة السلطان . فهل يا ترى تبدلت الحال وزال الاحتلال ؟

كلا ولكنه خور فى العزائم لا نزال نراه الى الآن فى الشرق ـ واأسفاه ! ـ وهم اذ ينادون بوجوب العودة الى استامبول يكتفون من الجهاد بالقليل التافه الذى قاموا به احتجاجاً وكلاما ، لا حربا وصداماً . .

ورءوف بك ـ الرجل الكبير الذى رأيته فى القاهرة وأكبرت اخلاقه واعجبت بدهائه وذكائه ـ يقود تلك الحركة الخطيرة ويسير فى طليعة النواب الى استامبول .. فاذا حاول كمال أن يحتفظ لنفسه بحق رئاسة البرلمان ، وقام ينادى بوجوب بقائه فى انقرة سخروا منه ـ بل قل أوجسوا خيفة من الوجه الضامر وعينى الذئب المتألقتين . .

اذاً فليذهبوا الى استامبول . وليبق الذئب فى انقرة وحده لينظم فلول الجيش الوطنى وليستعد لكفاح موعده قريب

وسيعلم النواب الذين ذهبوا الى استامبول أى منقلب ينقلبون !

سعيد في الدارين من يقتل مصطفى كمال !

النواب يصلون الى مياه البسفور ويعبرونها الى العاصمة خلال بوارج الاحتلال، ثم يدخلون مجلس المبعوثان دخول الظافرين هاتفين مهللين لأنهم استعادوا مجلسهم وقانون انتخابهم الحر . .

مهزلة طالما تكررت فى الشرق ـ وما زالت تتكرر !

النواب يرفعون الى الخليفة كتابا لسان حاله يقول : المجد لوحيد الدين ، ومنبوذ هو ذلك المارق الجاثم فى انقرة

ثم يشرعون فى العمل . فيتناقشون ، ويطول بهم النقاش

وعندما تصلهم أنباء انسحاب الانجليز من بعض جهات الأناضول ، والفرنسيين من بعض الولايات التركية ، تبلغ بهم حمى النقاش أشدها ويخيل اليهم أنهم حقيقة يعملون ـ فيتناقشون ، ويتناقشون . .

وعندما يتدخل الانجليز فى شئونهم الداخلية : يحتجون ، ثم يحتجون . .

فيضرب الانجليز ضربتهم القاضية فى فجر يوم ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ : فهذه جحافلهم تنزل من الاسطول لاحتلال العاصمة ، فتسير من كوبرى غلطة الى وزارة الحربية ، ثم الى ميدان بايزيد

وهنا يقف التاريخ ليتحدث عن مذبحة بايزيد ووحشية الانجليز فى قره قول بايزيد : فبؤلاء عساكر القره قول نيام . وهذه قوات انجليزية تأمر محمدا النوبتجى

بالتسليم ، فيرفض ، فتصرعه لتوه . . ثم تدخل القره قول فترى العساكر فى ثياب النوم ، فتصرعهم دون رحمة . . فيسجل التاريخ موتهم فى أول قائمة الشهداء فى حرب الاستقلال

النواب المجاهدون يصممون على الاحتجاج فيشتت جنود الاحتلال شملهم ويسوقون بعضهم ـ وعلى رأسهم رءوف بك وفتحى بك ـ الى مالطة

وتبزغ الشمس على بلد أرضه محتلة ، ومياهه محتلة ، وفى وسطه قصر يجلس فيه خليفة وسلطان يقال انه حامى حمى الدين وخليفة المسلمين

ومن عجب ألا يحتج هذا الرجل والاحتجاج أوهى مراتب الجهاد !

* * *

فلول النواب يفرون الى الأناضول . وفلول وزارة الحربية : عصمت وفوزى ولا أدرى من من كبار الضباط وصغارهم ، يلحقون بزملائهم كمال وكاظم ورأفت وعلى فؤاد وعارف

والعاصمة لا تنبس ببنت شفة وكأنها طلل ينعق فوقه البوم

فى هذا اليوم المشئوم يدخل تلاميذ احدى المدارس فصولهم . وفى أحد الفصول النهائية يجلس الأستاذ صامتا مفجوعاً . ويطول صمته . فيقوم أحد التلاميذ فيقول : «ما بال استاذنا لا يتكلم ؟» فيرفع الأستاذ رأسه ويقول : « اليوم لا كلام ولا درس . فالدروس تلقى لخير الوطن ، ونحن منذ اليوم لا وطن لنا نعمل من أجله ! » ثم تتألق عيناه ببريق رهيب ويقول : «لتقطع الألسنة ولتقصف الاقلام ريثما نستعيد مجد الوطن . . فاذا سألتمونى : أين هو الوطن ؟ قلت : انه هناك فى قلب الأناضول حيث مصطفى كمال ومحمد وفاطمة * . . فهل فيكم من يعمل مع هؤلاء ويستشهد فى سبيل وطنه ؟ ! »

التاريخ يقول : أجل . وان من لم يقدر له الفرار الى الاناضول ليعمل فى العاصمة ، والا فكيف نفسر عثور الانجليز على عشرات من قتلاهم فى الطرقات صبيحة كل يوم ؟

* * *

الانجليز ضربوا ضربتهم القاضية . وبقى أن يقوم وحيد الدين بدوره

---

* محمد وفاطمة اسمان يطلقان على الجندي التركى والمرأة التركية

هوذا يخرج من اعتكافه الى ميدان العمل . واذا برز الخليفة الى الميدان فلا غنى له عن الخفاش الاسود

والخفاش الاسود انجليزى أكثر من جون بول . وهو يرى تشتيت النواب واغلاق مجلس المبعوثان بداءة حسنة لم يبق بعدها الا القبض على كمال واركان حربه ليتم له بذلك الفوز الحاسم

وما أسهل القضاء على كمال وحركته بمنشور يحل فيه الخليفة سفك دمه !

والمنشور مكتوب لا ينقصه الا توقيع الخليفة . وتوقيع الخليفة يتم دون تردد منه

وفى اليوم التالى يذاع المنشور فى دواوين الحكومة وفى الطرقات . ويتلى فى المساجد وتوزعه الطائرات اليونانية ـ برضاء الخليفة ـ فى سائر انحاء الأناضول ، ويخرج الشعب منه بأن الحركة القائمة فى الأناضول حركة سداها الخيانة ـ وأن زعماءها خائنون ، وأن الخليفة يدعو كل مواطن مسلم الى نصرته ونصرة الدين الحنيف ـ فالجهاد الجهاد تحت لواء الخلافة للقضاء على اعداء الوطن الكافرين ، ومباح هودم مصطفى كمال المارق ، وسعيد فى الدنيا والآخرة من يقتل هذا الخائن !

قضى الامر

الخليفة وخفاشه الاسود ينتصران على طول الخط

والحركة الوطنية تتساقط كاوراق الخريف فى يوم عاصف

ومعاقل الوطنيين تسقط فى يد الخلافة تباعاً مبتدئة من السواحل موغلة شطر قلب الاناضول

و « جيش الخليفة » الذى جمعه سليمان شوكت باشا بأمر من مولاه يدخل الاناضول ظافراً وكأن الاناضول قطعة من أرض العدو يفتحها سليل آل عثمان والجالس على عرش محمد الفاتح

ورجال الدين يستنفرون الناس الى الجهاد الدينى ، فاذا برز لهم أنصار كمال قتلوهم ومثلوا بجثثهم أفظع تمثيل

قرية فى اثر قرية ، وولاية فى اثر ولاية تعلن ولاءها للخليفة : أزمير . . بروسة قونيا . . آطه بازار . . سمسون . . هو ذا جيش الخليفة أوشك أن يبلغ أنقرة . .

ثم ان الفرنسيين يتقدمون من ناحية الحدود السورية ، والانجليز والايطاليون يتحفزون . واليونانيون يزحفون من أزمير الى الداخل . والارمن يقومون لتحقيق حلمهم العتيد : مملكة أرمينيا . والاكراد يرفعون علم الثورة بايعاز من الانجليز . وكل تركي من أنصار الخليفة يتعطش الى سفك دم مصطفى كمال ونيل المكافأة التي قررت لقاتله

فاذا بحثت عن قوات الوطنيين لم تجد إلا جيش كاظم قره بكير في الولايات الشرقية . أما بقية القوات فهي إما مرتدة الى جيش الخليفة ، واما فلول لا خطر لها ، واما عصابات ضررها اكثر من نفعها

فقد مصطفى كمال كل شيء ، الا الأمل !

هو ذا جالس الى مكتبه العتيق في بهو مدرسة الزراعة بأنقرة ومعه صديقه عارف ونفر من الحراس المخلصين ، وأمامه خريطة ينظر فيها من حين لحين .. هوذا جندي يرفع يده بالسلام العسكري ويسلمه رسالة برقية . فيقرأ فيها نبأ كارثة جديدة . فيصدر الامر باتخاذ بعض الاجراءات . ثم يدخل الجندي بكارثة أخرى ، فيصدر اليه أمراً جديداً

وهكذا الى ساعة متأخرة من الليل ، كل يوم !

ترى هل يخونه حراسه وجنوده ؟

ولم لا وفي قتله رضاء الخليفة وبضعة آلاف من الجنيهات ! ؟

فاذا ظل حراسه له مخلصين ، فهل ينجو من خطر الاغتيال طالما ان انقرة محاطة بطائفة من السفاحين المتعطشين الى الدم المباح ؟

فاذا نجا من السفاحين ، فهل ينجو من الثورة التي توشك ان تندلع فيما حول انقرة ثم تسفي الموت على آخر معقل من معاقل الوطنية ؟

وحدة أليمة . . ويأس قاتل . . وصراع مع القدر فوق طاقة البشر !

الذئب يظل في وحدته حديداً جليداً . ويهتف من حين إلى آخر : « ليكن ما يكون . . . ان تركيا لم تمت بعد ! »

* * *

وبعد بضعة أيام يفتح الباب ويدخل عليه رجلان : عصمت القصير الضئيل . وفوزي الطويل الفحل . فيتعانق الرجال الثلاثة ولا يتكلمون ، بل ينفرد كل منهم في غرفة ويعمل

ثم يفد عليهم نفر آخرون :

خالدة أديب نابغة نساء الترك . زوجها عدنان . نواب نجوا من النفى الى مالطة ووفدوا الى رئيسهم السابق وهم على ما بدر منهم آسفون وعلى الخلافة ثائرون . رجل كبير الرأس ضامر الجسم ذو لحية صغيرة أعرفه وتتلمذت له ، فر من العاصمة ودخل على كمال وصحبه ليلهب الثورة بشعره النارى وليضع للحركة الوطنية نشيداً . هذا الرجل هو شاعر تركيا الاوحد واستاذى العزيز محمد عاكف

وفيما عدا ذلك فاليأس القاتل ما يزال مخيما على انقرة . والسفاحون ما يزالون متعطشين الى الدم المباح !

لك الله يا فاطمة !

عجيب والله أمر هذا الشعب التركى : تحمسه خطبة ثم يثبطه منشور . يثيره كمال ثم يقعده الخليفة ومن ورائه الخفاش الاسود

ولعل السر فى هـذا التقلب أنه شعب ذهبت كوارث الحرب برصانته المعهودة وبروده المألوف وأشرفت به على تلك الخفة وهـذا النزق الذى تتأدى به الهزيمة إلى الفناء

كان الاتراك حتى الأمس كتلة واحدة تؤيد الخليفة وتسعى فى قتل كمال . واليوم تتغير الحال غير الحال وينقلب الرأى العام آفلا إلى الرجل الحديدى الجاثم فى أنقرة . فقد تسامع الناس بأنباء احتلال أرض العاصمة ومصرع العساكر فى قره قول بايزيد ونفى النواب واغلاق مجلس المبعوثان ، وأيقنوا أن الخليفة وخفاشه الاسود يعملان بوحى من الانجليز إذ يبيحان دم كمال ويسعيان فى القضاء على حركته التى لا مصلحة له فيها إلا مصلحة الوطن . وحتى الذين احسنوا الظن بالخليفة لم يعودوا يؤمنون بقدرته على فعل الخير وهو السجين فى قصره فى العاصمة المحتلة ، والرأى العام الذى تاب الى كمال وأناب وترامى على مكتبة العتيق فى دار مدرسة الزراعة بانقرة ، رأى عام مؤمن برسالته ثائر لخيانة الخليفة . ولا نظن أنه سيتراوح بين الشك واليقين بعد ذلك

جيش الخليفة تنقصه الروح المعنوية . وهو كل يوم يشهد فرار عساكره وانضمامهم الى القوات الوطنية . ولا تكاد تمضى الأسابيع حتى يضمحل ويزول كما يزول كل باطل يواجهه حق عتيد

والجنود الذين ارتدوا عن القوات الوطنيـة يعودون إلى الانخراط فى فرقهم وينحنون على قدمى كمال يبللونهما بدموع الندم

والشباب ، والشيوخ ، والنساء ـ وفيهن العقائل المحصنات ـ سيل يتحدر من سائر الانحاء ويجتمع فى انقرة

والقروية الحسناء فاطمة تحمل الى انقرة الأقوات وتخدم الجنود . ثم تكرس أعصابها لحمل البنادق والمسدسات ومئات الألوف من قطع الرصاص والقنابل المهربة من حيث لايعلم أحد . فاذا أشرف عليها الليل وهى فى عرض الطريق نامت حيث هى وحينما اتفق واستكثرت الغطاء على نفسها فى صبارة الشتاء والمطر ينصب عليها انصباباً فغطت به ما تحمل من أسلحة وذخائر !

وهى لا تحمل السلاح والذخائر وحسب ، وانما تقدم للوطن ابنها ووحيدها قرباناً حلالا

لك الله يا فاطمة يا بنت الشهيد ، وزوجة الشهيد ، وأم الشهيد !

مصطفى كمال يرى كل ذلك فلا يزال حيث كان وكما كان حديداً جليداً . ويطيب له الآن أن يدرب عساكره بالحديد والنار على صراع مقبل رهيب ، الذخائر فيـه شحيحة والراحة محرمة والقوت تافه قليل . وانك لتراه هنا وهناك فى كل مكان كالهيكل الجبار من فولاذ أسلاكه

وهو يدعو سائر نواب الأمة الى أنقرة فيجتمعون فيها ويعقدون مجلسا يسمونه « المجلس الوطنى الكبير » . وهم إذ ينتخبون كمالا للرئاسة فى هذه المرة انما ينتخبون أصلحهم عن عقيدة وايمان . ولا يخيفهم ـ بعـد ـ الوجه الضامر وعينا الذئب المتألقتان

بعد نكبة « سيفر »

وتمضى معاهدة سيفر . والسلطان يتحمس لها . والمعاهدة تنشر وتذاع فيقرأها الاتراك فتجيش الثورة فى قلوبهم من جديد

ألهذا أمرهم السلطان بالصبر والتريث وعدم القيام فى وجه الاحتلال ؟

ألهذا افتى العلماء بكفر مصطفى كمال وأباح الخليفة دمه ؟

إن تركيا لتقسم بين الحلفاء قسمة عادلة .. ولا يترك للوطنيين منها الا قسم ضئيل.
ثم إنهم لا يدعون للاتراك شيئاً من الحق فى الاشراف على شئون بلادهم :
فالجيش سيأمر الحلفاء بتسريحه . والمواصلات ستكون تحت اشرافهم المباشر . والضرائب والعوائد والمكوس كذلك . وكل بارقة أمل فى الاستقلال يمحونها محوا ازلياً . .

نكبة فادحة . ومعاهدة جاءت بدون كفاح دموى . . معاهدة رخيصة هزيلة ، جاء بها سياسى كذاب يلوح بمطالبه بيد وبالمدفع بيد أخرى

ذئب انقرة يتحدى السلطان والخفاش الأسود وأولئك الجبابرة الذين يقررون مصائر الدول والشعوب لمصلحتهم بعد أن خرجوا من الحرب العظمى ظافرين

وهو لا يتريث حتى تتوطد أقدام الحلفاء فى الأناضول ، بل يأمر جيوشه فى الشمال والجنوب والشرق والغرب بمناوشتهم واحتلال كل شبر من الارض ينسحبون منه ، فتخلص له ولايات بأسرها من مخالب الفرنسيين والانجليز

وهو فى تلك الاثناء يلهب نواب المجلس الوطنى الكبير بخطبه النارية . ثم يعود إلى الشعب فيرى منه أذنا صاغية واستعداداً للكفاح :

« لقد خرج الحلفاء ـ أو كادوا ـ من الأناضول . ولم يبق إلا اليونان فى ازمير ، والانجليز فى استامبول . وإن حملة واحدة موفقة لتدفع باليونان الى البحر ، وبالانجليز إلى حيث . . . »

وهو يقول إن الاحتلال الانجليزى فى استامبول احتلال ضعيف لا يقوى على المقاومة . ثم ان أحرار الفرنسيين والايطاليين والامريكيين يقولون ـ بوحى من صاحبنا الهزيل ذى الخصلة النابليونية ـ إن الحلفاء فى حالة من الضنك والسأم لا تسمح لهم بمعاودة الحرب من جديد ، وإن الشعوب الأوربية لن تتيح لحكوماتها بعد ذلك أن تزج بها فى نيران حروب جديدة مهما يكن الباعث عليها . .

ثم ان جيش الاحتلال فى استامبول خائف متوجس بعد أن علم بقوة الحركة الوطنية وتصميم بطل الدردنيل على الكفاح . والانجليز اذ يتصورون كما لا يتصورون معه عشرات الألوف من قتلاهم الثاوين تحت تراب غاليبولي . .

إذاً فالبدار البدار الى استامبول !

* * *

ميت يبعث من جديد !

جيش الخليفة لا تبقى منه باقية !

جلاء الحلفاء عن أطراف الأناضول يتم بسرعة عجيبة !

كاظم قره بكير ينظف منطقة أرمينيا ويزيل شبح الأرمن . الى الابد!

صناديق وافرة من الرصاص يغنمها هذا الرجل من الاعداء فيبادر الى ارسالها الى أنقرة

على فؤاد ينظف المنطقة المحيطة بازمير من طلائع اليونان والأرمن

أدهم الشركسى ـ رئيس العصابات فيما سلف ـ يقوم بأعمال حربية باهرة مع على فؤاد !

جعفر طيار : هذا الجندى الكبير المخلص الكمال والحامل لواءه فى تركية أوربا ، فى منطقة أدرنة ، يشرع فى الزحف على استامبول

ومصطفى كمال فى انقرة كالقلب الجبار يبث فى الجنود روح الاستبسال ويدفعهم الى هنا والى هناك

وإن فى ارادته الفولاذية وروحه القوية ونظراته النارية لآية لمن يرى ويسمع

فنزيلوس رجل الساعة !

رجل ضئيل أصفر : فيه من الذئب والثعلب الغدر والدهاء . فى كريد ولد ، وفى الثورات شب عن الطوق . وفى الدماء ولغ . وله فى عالم السياسة الدولية جولات بارعات

فدائى كأروع ما عرف عن شيخ الجبل وطائفة الحشاشين !

مئات الألوف من الجثث يتخطاها . وبحار من الدماء يعبرها ليصل الى غايته فى الحياة : مجد اليونان ، ورفع الصليب على مسجد أيا صوفيا

هو الآن رجل الساعة : فقد جلس مع جبابرة العالم ليبت معهم فى مصائر الأمم والشعوب ، فرأى ما هم فيه من ارتباك بعد أن ثار الترك واعتزموا اجلاء الحلفاء عن استامبول ، فتطوع لافناء الترك بجيش من بنى وطنه

جبابرة العالم يرحبون بما عرض عليهم ثعلب كريد ، فلئن كانت شعوب أوربا فى

حالة من الضنك والسأم لا تسمح بقتال الأتراك ، فهذا شعب يتطوع قائده بالقتال دون أن يرغمه أحد على ذلك

ثعلب كريد ينقلب ذئباً ، ويطلب إلى جبابرة العالم امداده بالاسلحة والذخائر ، فيمدونه بما بقى لديهم من مخلفات الحرب ، مدافع وقنابل ورشاشات وبنادق وطلقات وطائرات وخيول وعربات

وذئب كريد يسوق إلى ازمير زهرة الضباط والجنود اليونانيين تمهيداً للزحف على الأناضول

وفي طرفة عين يرى كمال أن الموقف انقلب رأساً على عقب : فبعد فلول الحلفاء الراغبة عن القتال يفد على الأناضول جيش عرمرم متحمس للحرب مستعد لها

وفى ٢٣ يونيه سنة ١٩٢٠ يشرع اليونان في الزحف :

فى تركية أوربا ينهزم جعفر طيار بجيشه ويقع فى الاسر ، ويستولى اليونان على ما بقى فى يد الاتراك من القرى والبلدان

وفى ازميت يقضى الجيش اليونانى على مقاومة الأتراك قضاء مبرما

ومن ازمير يزحف جيشان يونانيان جباران فيكتسحان عصابات أدهم الشركسى وقوات على فؤاد ، ويسيران فى الأناضول صعداً رافعين ألوية النصر على القرى والمدائن

اليونانى فى السلم ندل وبقال . ولكنه فى الحرب جندى جبار . وهو فى زحفه هذا على الأناضول وحش كاسر أيقظ فيه ذئب كريد ثأره القديم فراح يقاتل كأروع ما يقاتل جندى تركى أو فرنسى

ثم انه لم يقاس أهوال الحرب الكبرى . والسلاح والذخيرة فى متناول يده . والاموال تنهال عليه . والحلفاء من خلفه يدفعونه ويؤيدونه . والوطنيون أمامه عصابات وفلول جيوش جائعة ، فقيرة ، لا سلاح معها ولا ذخائر

* * *

ما أشنع فرار الوطنيين أمام الزحف اليونانى! وما أسعد الخليفة والخفاش الاسود بهذا الفرار !

اليونان أوشكوا على بلوغ اسكيشهر . وقوادهم يصرون على وجوب الزحف حتى يبلغوا شرق الاناضول . ولكن ثمة ارادة عليا من الحلفاء تمنعهم من مواصلة

الزحف حتى يوطدوا أقدامهم فى الارض التى فتحوها

وفى انقرة ثورة كلامية توشك أن تؤدى الى فشل ذريع . فنواب المجلس الوطنى الكبير الذين سمعوا بالأمس من كمال أنهم على وشك الظفر وبلوغ استامبول تهولهم انباء الهزائم والفرار ، ولا يصدقون أن الحالة تغيرت عما كانت عليه . فهل كان كمال يلعب بعقولهم عندما قال إن استرجاع استامبول أصبح قاب قوسين أو أدنى ؟ أم أنه تسبب ـ بحماقته وطيشه وجبن قواده ـ فى فشل الحركة الوطنية ؟ !

مصطفى كمال يكاد يصبح عدو الشعب فى نظر بعض النواب . وعصمت وفوزى لا يصلحان لادارة المعارك . وعلى فؤاد الذى انسحب أمام اليونانيين خائن يجب اعدامه . وأدهم الشركسى ـ السفاح ـ ورئيس العصابات فيما سلف ، هو المنقذ الوحيد والرجل الذى يصلح الآن لادارة المعارك !

بل ان في النواب من ينادون بوجوب حل الجيوش المنظمة وجعلها عصابات يقودها أدهم الشركسى . . .

وأدهم الشركسى يزور أنقرة فتستقبله استقبال الغزاة الفاتحين . وزعيم العصابات السفاح يدخل المجلس الوطنى الكبير فيقوم له النواب اجلالا ويهتفون له ويصفقون، فاذا دخل كمال المجلس استقبلوه ببرود وفتور ، وتفرسوا فيه بنظرات ، الاغتيال كامن فيها والثأر فى أشعتها يتألق . .

مصطفى كمال لا يزال كما كان وحيثما كان حديداً جليداً

إنه يتقدم إلى منبر الخطابة بخطوات ثابتة ، ويقف أمام النواب صامتاً ريثما تفرغ جعبة هتافاتهم العدائية ، ثم يتكلم خافت الصوت فى أول الأمر ، قويه بعد لحظات ، مدمدماً بعد دقائق . . .

إنه يقول للنواب إنهم لا يقدرون الموقف حق قدره . وإن الحركة الوطنية لا ينتظر منها أن تقف فى وجه الزحف اليونانى وهى بعد فى مهدها . وإن الجيش اليونانى جيش جبار مزود بالمال والسلاح والذخيرة . وان الخليفة وخفاشه الأسود هما الملومان فقد سرحا القوات الوطنية ثم وقعا على معاهدة سيفر ، ولم يكفهما ذلك بل أثارا حرباً أهلية بين أهل البلاد فأصبح التركى يقاتل أخاه وكأنه يقاتل عدواً دخيلا . . فكيف ينتظر من بلد هذا شأنه ، وجيش تلك حالته ان يقف أمام اليونانيين ويهزمهم فى أول معركة يواجههم فيها ؟

ثم ينطلق موجها كلامه الى دعاة التسليم بالأمر الواقع ، فيهتف بهم أن اذكروا مجدكم القديم وفخار آبائكم وأجدادكم ، وتذكروا انكم كنتم لليونان سادة حاكمين . فكيف تقبلون الذل والاسر من عبيدكم بالأمس ! ؟ « حاش لله أن تكونوا عبيداً وقد خلقكم الله أحراراً . . ثوروا لقوميتكم ، ووحدوا شتات قوتكم ، واعلموا أن لواء النصر معقود لكم آخر الأمر باذن الله ! »

ويغادر الرجل الحديد الجليد المنبر فيسود الصمت العميق بضع دقائق . ثم تنطلق الحناجر بالهتاف والأكف بالتصفيق تمجدة عدو الأمس وبطل اليوم !

الويل لأدهم الخائن !

مصطفى كمال رجل الحرب النظامية يخرج من قاعة المجلس الوطنى الكبير ظافراً بتأييد النواب مصمما على القضاء على أدهم الشركسى زعيم حرب العصابات . وهو ـ كعادته دائماً ـ لا يعفو عمن أساء اليه والى قضية الوطن . وقد أساء أدهم الشركسى اليه كما أساء الى الحركة الوطنية بغروره وحركات عصاباته الجنونية ، وتسبب فى هزيمة القوات الوطنية أمام الجيش اليونانى الزاحف ، وأوشك أن يقضى على النظم العسكرية التركية ، وشجع نفراً من الضباط والجنود على خلع اللباس العسكرى والتزيى بزى العصابات

وكمال رجل النظم العسكرية والخرائط والارقام يرى في حرب العصابات الهزيمة المحققة . فهو لذلك يعين عصمت قائداً للجبهة الغربية ، ويأمر أدهم وأتباعه بتلقى الأوامر من قائدهم وتنفيذها تنفيذا حرفياً

ولكن أدهم يرفض أن يكون تابعاً لعصمت ونصيراً لجيشه . ويجمع من أشتات عصاباته جيشاً يسميه « الجيش الأخضر » . ويحاول أن ينفرد بالولايات الغربية وبقتال اليونانيين . ويجمع من أهل القرى ضرائب فادحة ، ويتحدى كمالا وحكومة أنقرة . بل أكثر من ذلك كله أنه يهدد كمالا بالشنق اذا تعرض له بسوء !

ولقد حاول كمال أن يردعه عن غيه فما ارتدع . واستقدمه إلى انقرة ذات مرة ليقنعه بوجوب حل عصاباته ، فهدده زعيم العصابات بمسدسه . . ودعاه إلى زيارة عصمت فى خط النار وفض النزاع القائم بينه وبين غريمه ، فقفز أدهم من القطار في احدى المحطات واعتصم بعصاباته مخافة أن يغتاله مصطفى كمال . .

وهناك فى ولاية كوتاهية يشق أدهم عصا الطاعة على كمال وعلى الحركة الوطنية . ويعود السفاح إلى أصله فيعيث فى الأرض فساداً . ثم ينقلب خائناً فيفاوض حكومة الآستانة ويعرض عليها مساعدته ، ويعمل على قتل الروح المعنوية فى صدور الأتراك ، ويصدر النشرات بوجوب الكف عن القتال والاستسلام للامر الواقع ومفاوضة الحلفاء على أساس التسليم بكل شيء . .

كل ذلك يوحى من حقده على كمال ورغبته فى القضاء على حركته . وهو فى هذا الانحدار من الوطنية المتطرفة فى أول الحركة الوطنية ـ إلى الخيانة السافرة فى منتصفها يسعى في أحد أمرين : اما القيادة العليا ، وإما القضاء المبرم على الحركة الوطنية !

وأخيراً يضرب كمال ضربته القاصمة إذ يوجه رأفت إلى كوتاهية بجيش كبير يهزم عصابات أدهم ويشتت أتباعه ، فيفر أدهم الى حيث استقر جيش اليونان ، ومن ثم يندثر اسمه كزعيم وطنى . . الى الأبد

ومصطفى كمال رجل النظم العسكرية والخرائط والارقام يتنفس الصعداء فقد استراح من خصم عنيد أوشك أن يشطر تركيا المجاهدة الى معسكرين متقاتلين

عصمت في « اينونو »

فى منزل السيدة الكبيرة القلب بايان شريفه صالح كورخان جلست فى أحد أيام العام المنصرم أتحدث إلى رءوف بك ، وكان موضوع حديثنا عصمت . فقال رءوف بك:

« انه رجل كبير . كان القواد يتنافسون فى الحصول عليه عندما كان ضابطاً بسيطاً . وقد عرفته في اليمن فعرفت فيه رجل المستقبل . ولما عين أنور وزيرا للحربية اتخذه مديراً لشعبة الحركات ـ وهى وظيفة كبيرة بالغة الخطورة . وان أنس لا أنسى سفرنا إلى « يانيا » مع بعثة أركان الحرب ، إذ قال لى وهيب باشا ـ وكان معنا ـ مشيرا إلى عصمت : هذا رجل ليس له مثيل . . »

ثم صمت رءوف بك لحظة ليعاود حديثه :

« وأنا لا أظن ان مصطفى كمال خلق عصمت كما يقول الكثيرون ، فعصمت خلق نفسه بنفسه . وكل ما استطيع أن أقوله فى صدد الكلام عن رجلى تركيا العتيدين أن أحدهما يكمل الآخر »

هذا الرجل الكبير الذى يقول رءوف بك انه يكمل مصطفى كمال يفتتح الآن تاريخه الوطنى الحافل بنصر مجيد فى معركة « اينونو » الأولى ، فقد حسب اليونان أن انضمام أدهم اليهم معناه انقسام الجيش الوطنى ، فزحفوا على مدينة افيون قره حصار واحتلوا جانباً من الخط الحديدى الرئيسى فى الاناضول ، ولكنهم سرعان ما فوجئوا بهجوم واسع النطاق من عصمت اجلاهم عن المدينة التى احتلوها وأعادهم الى صفوفهم الأولى عند اسكيشهر

عصمت فى هذا الهجوم موفق إلى أقصى حده . واليونانيون ـ بعد ـ يستشعرون الخوف من الجيش الوطنى الذى زعم ذئب كريد ـ وكان محقاً فى زعمه ـ أنه الى الفلول الواهية أقرب منه الى الجيش المنظم الكبير

وفى انتصار عصمت الذى يكاد يكون احدى المعجزات اضعاف للروح المعنوية فى صفوف اليونان ، وتقوية لروح الكفاح فى الجيش الوطنى . وتلك الفلول التى حقر فنزيلوس من شأنها يعاودها الحماس ويصور لها الانتصار تصاوير باهرة فتجالد الفقر والجوع والعرى وتستعيد ما فقدته من البسالة والنظام تحت لواء عصمت

وأما اليونانيون فيظلون معسكرين حول اسكيشهر . وهم فى هذه الشهور الستة يزيدون فى قواتهم ويطلبون المزيد من الاسلحة والذخائر من حلفائهم استعداداً للهجوم المنتظر

أيام انقرة ولياليها

مصطفى كمال فى أنقرة يعمل . وعلى كتب منه فوزى مكب على خرائطه وشئون الجيش التى لا أول لها ولا آخر . وعصمت فى « اينونو » كما عهدناه ـ وسنعهده دائماً ـ كتلة من العمل صماء بكماء

ويحلو لى فى هذا الصدد أن أعدل فى أقوال رءوف بك قليلا : فمصطفى كمال وعصمت وفوزى أقانيم ثلاثة يكمل أحدهم الآخر وتتألف منهم ـ مجتمعين ـ تلك الحركة الوطنية الباهرة التى نتحدث عنها فى هذا الكتاب

ومن حق فوزى أن نصفه للقراء ما دام يزهد فى الاعلان عن نفسه :

هو رجل مديد القامة ممتلئها ، حديدى الارادة ، كامل الأخلاق ، لا يدخن ولا

يعرف الخمر أو الميسر ، متزوج وله ذرية صالحة ، محافظ على الشعائر الاسلامية فى مظهره ومخبره ، يصلى ويصوم ويزكى ويرتل القرآن منذ نعومة أظفاره ، زاهد فى المال والجاه ، لا يعرف الا مكتبه وخرائطه وجنوده وسجادته . اذا تحدث خلته رجلا عاديا . وهو فى تنظيم الجيش وتدبير الأقوات والأسلحة عسكرى من الطراز الاول عالمى الكفاءة الحربية . ملم بخريطة بلاده إلمام الرجل منا بتصميم منزله ، لا تسأله عن قرية أو جدول أو رابية أو طريق زراعى فى أية جهة من جهات الأناضول حتى يحدد لك مكانه بالضبط وكأنه ولد وعاش فيه طوال أيام حياته . .

مصطفى كمال يعمل فى أنقرة الى جوار هذا الرجل . وهو موقن أن اليونانيين فى اسكيشهر يستعدون لهجوم واسع النطاق ، فهو لذلك يصدر الاوامر الى سائر الولايات بتجنيد المتطوعين ، ويشرف على الحركات العسكرية بنفسه ، ويأمر أهل الاناضول باقراض حكومة أنقرة نصف محصول أراضيهم وما يربحون ، ويعدهم بتسديد هذا القرض عندما تستقر الأحوال بعد طرد العدو من أرض الوطن

وأهل الاناضول لا يترددون فى اقراض الحكومة نصف محصولاتهم . بل ان منهم من يتبرعون بهذا النصف ولا يطالبون الحكومة به . ولقد يعجب المرء لهذه التضحية من شعب استنزفت الخلافة موارده طوال ستة قرون ، كان ينفق فيها بسخاء على اليمن وبلاد العرب والعراق والشام ويسكب دماءه فى تلك البوادى السحيقة ، دون أن يعترف له أحد بفضله عليه ـ وانى لأجد السر فى تلك التضحيات الجديدة فى هذا الروح الجديد الذى نفخه مصطفى كمال فيهم ، فهو الآن لا يطلب منهم أموالهم ومحصول أراضيهم للدفاع عن أقطار أخرى وتعميرها ، بل يأخذ منهم ليعطيهم ، ويستخدمون فى الدفاع عن الوطن الذى يشربون ماءه ويعيشون تحت سمائه . وهو فى حركته الوطنية الجديدة مصمم على أن يكون الاناضول لأهل الاناضول ، ومنهم واليهم ، وهو دائماً أبداً يعترف بأن أهل الاناضول هم تركيا الحقيقية ، تركيا التى ستتخذ مكانها فى طليعة الدول الشرقية وعلى قدم المساواة بالدول الغربية . وأهل الاناضول لذلك مغتبطون مزهوون بتلك المسئولية العظمى الملقاة على عواتقهم ، فلا عجب أن يجودوا الآن بآخر قطرة من دمائهم ، وآخر سنبلة فى أراضيهم

وتضحياتهم لا تقف عند اقراض الحكومة وحسب . بل انهم يتطوعون فى الجيش الوطنى غلمانا وشيباً . فمن لم يتطوع فى الجيش منهم انضم الى الفواطم العاملات

فى نقل المؤن والذخائر الى خط النار . وان السائر فى المنطقة بين أنقرة و « اينونو » اذ ذاك ليرى ألوفا مؤلفة من النساء والرجال فيهم وفيهن حاملة القنابل على ظهرها ، وحامل الغلال على عربته التى تجرها الثيران فى طرق متعرجة ووهاد ونجاد ، دون أجر معلوم أو مجهول

وفى الميدان اليونانى كنت ترى سيارات النقل الكبيرة والقطر والطائرات تستعمل فى نقل المؤن والذخائر والرجال الى خط النار

* * *

ومصطفى كمال ينتقل الآن من دار مدرسة الزراعة الى دار ناظر محطة انقرة . فتراه هناك فى حجرة ضيقة مظلمة فيها من الاثاث أقله، ومن الخرائط والمحابر والاقلام والاعلام الصغيرة التى تستعمل فى رسم الخطط على الخرائط آكام

يومه من مطلع الشمس الى مغربها ينقضى فى المجلس الوطنى الكبير ، وحيث الجنود والحديد والنار ، وأمام عامل التلغراف ، وهنا وهناك وفى كل مكان

وليله ينقضى فى غرفته الضيقة حيث يجلس على نور الغاز وأمامه منضدة فوقها خريطة الاناضول وبجواره عشرات من لفائف التبغ يدخنها تباعاً ويلقى بأعقابها فى المنفضة أو فى الغرفة حيثما اتفق . وهو فى جلسته أمام الخريطة دائب على تثبيت الاعلام الصغيرة على مواقع العدو ومواقع جنوده ، يرسم خطته ويناقشها ساعات طويلة ، فاذا وجد فيها نقطة ضعف عدل عنها فى جملتها أو فى بعض تفاصيلها . وكثيراً ما نرى بجواره صديقه عارف ، أو مساعده فوزى ، أو هذا أو ذاك من ضباط أركان الحرب أو من حراسه المعروفين « باللاظ » وعلى رأسهم عثمان أغا

والفجر وحده يجد كمالا متمدداً على فراشه الخشن . . !

وبعد بضعة أسابيع ينتقل كمال من منزل ناظر المحطة الى قمة رابية « تشان كايا » المشرفة على قرية انقرة . هناك يقيم فى منزل متواضع مبنى من الحجر فتصلح حاله قليلا . وتعمل أمه « زبيدة » على توفير أسباب الراحة له فنرى لونا مؤثراً من حنان الامهات

« زبيدة » التى رأيناها فى سلانيك وسمعناها تنصح ابنها كمالا بعدم التعرض للخليفة الذى يملك قوة سبعة من الاولياء . . زبيدة التى أشرفت الآن على مرحلة عمرها الاخيرة ، والتى لا تزال تتصور كمالا طفلا فى المهد يبكى ويضحك ويرضع اللبن من ثديها .. زبيدة هذه لاتكاد تصدق أن ابنها أصبح «باشا» من الباشوات وأنقذ تركيا

من نكبة غاليبولى وها هو ذا الآن ينتقمها من نكبة سيفر . .

انها تتحدث اليه كما تتحدث الأمهات الى طفل شقى . فيضحك كمال ـ وما أندر ما يضحك !

وهى تشرف على طعامه وفراشه بمساعدة فكرية هانم ولا تنسى أن تقول : «ابنى كان يحب كذا ولا يحب كذا من ألوان الطعام لما كان طفلا يلعب . . »

وهى تقوم من فراشها فى الصباح مبكرة فلا تجد ابنها فى المنزل . فتدخل غرفة نومه فتجد أثاثها منقلباً رأساً على عقب : كثيباً مهيلا فيه « قلبق » وطربوش وحذاء عسكرى خشن وملابس داخلية وخارجية وخرائط وأعلام صغيرة وعشرات من أعقاب السجاير تملأ أرض الغرفة . . فتتنهد

* * *

المجلس الوطنى الكبير دائب على العمل . يعقد جلساته فى الحقير والخطير من الأمور . والنواب يعملون باخلاص وتضحية ولكنهم فى نظر كمال جمهرة من الناس لهم ألسنة تتكلم ، وأفئدة تجيش فيها الوطنية ، وأكف تجيد التصفيق ، ولا أكثر من ذلك . . شأن سائر البرلمانات فى سائر انحاء العالم

نعم ان فيهم السياسى ، والعالم الدينى ، والزارع ، والتاجر ، والصانع ، والشاعر الاديب . وكل ما يصدر من قوانين أو أوامر لابد أن يناقشوها ويوافقوا عليها . ولكن من الذى يشرع القوانين ويوحى باصدار الأوامر ؟

نحن نقرر ـ للحقيقة والتاريخ ـ انهم كانوا يرهقون أعصابهم فى النقاش والهتاف ولكنا نقرر ـ للحقيقة والتاريخ أيضاً ـ ان كمالا هو الذى كان يقرر وينفذ . بيد أن وجودهم ووجود المجلس الوطنى أمر لا بد منه لتتخذ قرارات كمال ومشروعاته صفة القوانين

ومصطفى كمال إذ يجلس على أحد مقاعد المجلس الخلفية شخصية لا بأس بها فى نظر النواب . بيد أنه ينقلب شخصاً غير مرغوب فيه اذا استكثر مناقشاتهم وسئم تشعب وجهات أنظارهم فارتقى ذروة المنبر وظهر أمامهم بوجهه الشاحب الضامر وعينى الذئب المتألقتين . . فاذا تحدث وعلا صوته ودمدم ، وراح يخلب ألبابهم بسحر بيانه وروعة خطابته ، صفقوا له طويلا وأيدوه على طول الخط . .

وان كمالا ليفاجئهم فى كل يوم بكل جديد مستطرف :

فروسيا البلشفية التى قامت على انقاض القيصرية تختط فى مستهل حياتها سياسة جديدة أساسها هدم الرأسمالية وعداء حلفاء الأمس وعلى رأسهم انجلترا . وهى تنسى تلك العداوة التقليدية للاتراك التى توارثها الروس قيصراً عن قيصر ، وتتقرب الى حكومة انقرة بعد اعترافها الرسمى بها وعقد محالفة معها فى ٢٤ أغسطس سنة ١٩١٩

وكاظم قره بكير يهزم الأرمن عنـد (قرص) ويستولى على كميات وافرة من الذخائر والمدافع والبنادق صنعت فى معامل انجلترا ومنحت للأرمن بعد عقد الهدنة فيرسلها فوراً الى أنقرة

وفرنسا وايطاليا تشعران بالضيق والحرج من جراء السياسة الانجليزية اليونانية ، فتوحيان الى حكومة انقرة بأنهما ـ منذ الساعة ـ على الحياد ، وبأنهما على استعداد لبيع السلاح للجيش الوطنى

وانجلترا لا تقل عن زميلتيها ضيقاً وحرجاً . ولـكنها لا تزال تؤمل فى نجاح الغزوة اليونانية ، فهى لذلك جاثمة بأسطولها وجيشها فى مياه استامبول وثكناتها ، عاملة على امداد اليونانيين بالأسلحة والمؤن والمال

وفى الشرق الاسلامى موجة من الحماسة تمحو آثار العهود البائدة ، وتيار من العطف يتحدر على انقرة من سائر الانحاء ، وأموال تجمع ، وأدعية تلقى فى المساجد وقصائد يهتف بها الشعراء ممجدين كمالا وحركة الوطنية ، قائلين :

من العار أن يفدى الغزاة نفوسهم ونحن بدينار نضن ودرهم . . . »

وان فيهم من يبلغ به التأثر شأوه فيهتف :

عظم المصـاب وضج كل موحد وملا الأسى فى القبر قلب محمد
وتزلزل الحرمان حتى أوشكا يتداعيان الى الحضيض الأوهد . .

كل هذا يقصه كمال على النواب من فوق المنبر ويضفى عليه الواناً من آيات بلاغته فيتحمسون ويهتفون ! وبذلك يحتفظ بمكانته فى قلوبهم فى تلك الأشهر الطويلة المملة التى تسبق زحف اليونانيين وتنذر بهبوب العاصفة النكباء

ثم ينطلق داهية الحرب والسياسة فى تحميس النواب والجنود فيقترح تأليف نشيد للحركة الوطنية . ويعين للفائز جائزة كبيرة . فيتبارى الشعراء والمتشاعرون فى تأليف النشيد . ولـكن أنى لهم ذلك وشاعر تركيا الأكبر محمد عاكف مقيم فى

أنقرة ؟ وهل يؤلف النشيد وعاكف فى المدينة ؟

أطال الله بقاءك يا استاذى العزيز . . انه يضع نشيدا : الاعجاز فى كل بيت منه ، والنار فيه تتوهج . . فيفوز بالجائزة ، ولكنه يتنازل عنها للحركة الوطنية وهو أحد أقطابها قائلا : ان قبول الوطن لنشيده يكفيه فخاراً وتخليدا

ويلقى النشيد فى المجلس الوطنى الكبير فى يوم اشتدت فيه الحماسة ، فيقاطعه النواب بعد كل شطرة منه بعاصفة من التصفيق تستمر بضع دقائق ، حتى اذا ما وصل الشاعر الى قوله :

« لتبزغن أيام مجدك التى وعدك بها حقك العتيد . . .

« ومن يدرى . . فلعلها تبزغ غداً ، أو لعلها أقرب اليك من الغد القريب ! »

نرى كمالا يخرج عن طوره فيهتف للنشيد وواضع النشيد ، وينادى بأن أيام لمجد أقرب اليه من حبل الوريد ، ويقفز الى فوق المقاعد هاتفاً مصفقاً ، حتى تسجل عقارب الساعة مرور عشر دقائق !

المناحة الكبرى

عصمت فى خط النار يستعد لملاقاة الهجوم اليونانى . وهو الآن سعيد بجيشه المنظم بعد أن رحل أدهم التركسى وتشتتت فلول عصاباته ، معتزم الدفاع عن اسكيشهر وافيون قره حصار وما حولها بما بين يديه من جيش صغير واسلحة لا تكاد تقارن باسلحة الاعداء

وفى كل يوم يسمع عصمت ازيز الطائرات اليونانية فوقه ، فيصر على أسنانه غيظاً لأن قوة دفاعه لا تملك طائرة واحدة . .

وكأن القدر يأبى الا أن يكون ساخراً فيبعث الى الجيش بطائرة واحدة من طائرات الانجليز يقودها شاب تركى جسور . .

ولهذه الطائرة قصة : فهذا الشاب الاستامبولى يخجل لأنه لم يتمكن من الالتحاق باخوانه المجاهدين ، فيبعث بزوجته الحسناء الى حيث ضباط سلاح الطيران الانجليزى فيلعب جمالها دوره الساحر الخطير ويأسر لب أحد الضباط ، ويحاول العاشق أن ينال من معشوقته ما يتمنى فتقول فى دلال واغراء : « قبل أن انيلك أمنيتك خذنى معك

فى الطائرة مرة واحدة . .» فيوافق الطيار على ذلك ويدعوها للركوب معه . فتقول له : « ألا تركب زوجى معنا ؟ ! إنه أبله لا خطر له . . » فيركبه الطيار معه أيضاً ..

وفى عالم الفضاء نشهد مأساة رهيبة : فالشاب التركى يصرع الطيار الانجليزى ويلقى بجثته الى الأرض ، ثم يقود الطائرة بمهارة فائقة الى انقرة . . الى مصطفى كمال ... فتكون الطائرة الوحيدة التى يملكها الجيش الوطنى !

عصمت لا يقدر على مبادرة اليونانيين بالهجوم فكل جندى يفقده ، وكل طلقة يضيعها تضعف الجيش الوطنى

أما اليونانيون فقادرون على الهجوم . وها هى ذى مدافعهم تملأ الفضاء قصفاً وتدك استحكامات الاتراك دكا .. هاهى ذى طلائعهم تخرج من الخنادق معتصمة بقنابل المدافع ، حاملة على جيش عصمت حملات رهيبة توشك أن تحمله على التقهقر . . . والويل له اذا تقهقر !

وهناك فى انقرة رعب شديد ونقاش طويل . . ونواب المجلس متشبثون بضرورة صد اليونانيين مهما تكن النتيجة . ومصطفى كمال يشعر بخطورة الزحف اليونانى فيعمل ليل نهار ، ويتصل بعصمت فى كل ساعة ليقف على سير المعارك ، فيعلم منه أن الزحف اليونانى لا يمكن الوقوف فى سبيله ، وأن العدو احتل كوتاهية وافيون قره حصار وأوشك أن يدخل اسيكشهر . . . فيأمره بالدفاع عن اسكيشهر . ولكن عصمت يوقفه على استحالة ذلك ، ويتوسل اليه أن يأتى بنفسه ليدير المعارك أو يأمر بالانسحاب الى موقع آخر منيع . فيغادر مصطفى كمال انقرة ويذهب الى خط النار

وسرعان ما تذاع انباء الزحف اليونانى وتقهقر الجيش الوطنى فتقوم فى الأناضول كله مناحة كبرى . .

لن يبقى اليونانيون على شىء اسمه تركيا في هذه المرة !

ولينتقمن الأرمن من الاتراك أشد انتقام !

ولتحرقن القرى والمدائن . ولتباحن الاعراض . وليقتلن الشيوخ والنساء والاطفال بعد الرجال . ولتهدمن المساجد . وليصمتن الى الابد صوت المؤذن : « الله أكبر الله أكبر ! » ولتتقلبن تركيا ارضا غير الأرض ، وقوما بعد قوم ، ودينا بعد دين ..

أهل القرى يستعدون للفرار فيحزمون أمتعتهم ويودعون مساكنهم ويستودعون الله مساجدهم وقبور أوليائهم وشهدائهم . .

وأهل انقرة يفرون الى الداخل فتكاد تخلو القرية الا من أعضاء المجلس الوطنى والجنود وبعض الرجال الشجعان

واليأس ، والخراب ، والموت ، كل أولئك أشباح تتراءى للناس في نومهم ويقظتهم

وهناك فى استامبول لا يزال خليفة المسلمين وظل الله فى الأرض صديقاً للعدو ، عدواً للمجاهدين

***

مصطفى كمال يذهب الى خط النار فيستقبله عصمت بحرارة ويتخلى له عن القيادة مكتفياً بتنفيذ الأوامر

وفي بضع ساعات يقضيها مصطفى كمال متنقلا فى خط النار يؤمن إيمانا لا تردد بعده بأن الانسحاب الى الداخل أمر لابد منه ، والا فالهزيمة المحققة .

ومصطفى كمال إذا آمن بشيء لم يتردد . فهو لذلك يأمر عصمت بالتقهقر إلى ضفاف نهر سقاريا

معركة سقاريا

أرأيت الذئب الذى دوخ مراعى آسيا منذ فجر التاريخ ، وانطلق يقفز من تلك القمة الشامخة إلى هذا النجد الشاهق ثم ينحدر إلى الوديان ومنها يعاود ارتقاء النجاد ليهبط الى الوهاد من جديد ؟

أرأيت ضمور وجهه وتألق عينيه فى ساعة الخطر ؟

إن هذا الذئب بعينه يقطع المسافة بين اسكيشهر وانقرة قفزاً ، حتى إذا ما بلغ نقرة هرع إلى حيث تجتمع الذئاب فى المجلس الوطنى الكبير ، فتستقبله بعواء : الموت فى جلجلته واليأس القاتل فى نبراته . فيعوى أمامها بدوره ويقول لها كما قال ذئب آسيا لاتراك آسيا من قبل : « النجاة من هنا . . على كثب من انقرة . . على ضفاف سقاريا . . »

فتعاود الذئاب العواء ، وتكشر عن أنيابها ، ويتألق الموت فى عينيها ، وتهم بافتراس زعيمها فى ساعة الخطر وليكن بعد ذلك ما يكون . .

ولكن الذئب الزعيم يتحدى الانياب والنظرات القاتلة بأنياب ونظرات أشد منها فتكا وأروع تألقاً ، ويقول وهو يلهث : « ما بالكم تجبنون ، وفى ساعة اليأس تتمردون ؟ أقول لكم النجاة من هنا . . على كثب من انقرة . . على ضفاف سقاريا . . امنحونى قيادة الجيش العليا أمهد لكم سبل النجاة . . »

فتعاود الذئاب العواء من جديد . وقاعة المجلس الوطنى تكاد تحترق من تألق النظرات النارية . والموت ترقص اشباحه فى عالم من اليأس مميت

وهناك فى أقصى القاعة يقعى الذئب الزعيم على ذنبه ويتحفز للهجوم . .

يا له من منظر !

إن عواءه يصم الآذان . إن وجهه الضامر يبدو كقطعة من الفولاذ حمراء ملتهبة . إن عينيه تصرعان سائر الذئاب بتألقها الوحشى المخيف . . إنه لا تكاد تمر لحظات حتى يخرج الذئب الزعيم من المجلس قائداً أعلى للجيش لا يرد له أمر

***

والذئب الزعيم يقطع المسافة من انقرة إلى سقاريا قفزاً . وهو إذ يدنو من خط النار يسمع دوى قنابل العدو فتتألق عيناه بشدة . . ويلهث !

فاذا اشرف على مواقع العدو ، نراه على ظهر جواده وفى يده منظار الميدان المكبر . نراه يطبع تضاريس الميدان على صفحة ذهنه . نراه يقيس كل شبر فى هذا الميدان ويقدر لذاك السهل يوما ، ولتلك الرابية ليلة ، ولهذه التلال وما وراءها ليالى وأياما

ثم نراه فوق السهل . وعلى الرابية . وفوق قمم التلال . وفى كل مكان . كما رأيناه فى غاليبولى من قبل يتحدى الموت وهو موقن أن الموت ليس من نصيبه

آلاف من الطلقات تصوب اليه فلا يموت

مئات من القذائف تتهاوى حوله فتقصف الأعمار : أعمار القواد ، والضباط ، والجنود ، وهو رغم ذلك كله لا يموت

وثمة طلقة واحدة تصيب جواده فيهوى الى الأرض صريعاً . فيقوم الذئب من فوقه وقد تكسرت ثلاث عظام من ضلوعه . .

ولكن هل مات ؟

كلا . . إنه يقعى على ذنبه ويهتف فى جنوده وهو يلهث : « إلىّ بجواد آخر . .

هنا فوق هذه الرابية سقطت عن ظهر الجواد ، وهنا فوق هـذه الرابية سينهزم العدو ! »

ثم نراه فوق ظهر جواده ثانياً واربعين ساعة متتالية لا يذوق خلالها طعم النوم، مع أن ضلوعه المكسرة تذيقه من الآلام ما هو فوق طاقة البشر

إنه يتحدى القدر . . إنه يعلم أن سقاريا هى الأمل الأخير : فاما نصر فحياة ، واما هزيمة ففناء . فهل يعبأ بعد اليوم بسقطة من فوق جواد ، أو تكسير فى بعض الضلوع ؟

* * *

سقاريا تسجل تاريخها بدماء عشرات الألوف من الضحايا

فعلى كثب من النهر يحمل اليونانيون على الأتراك حملات صادقة ويفنون منهم فى كل حملة كتلا هى زهرة الشباب التركى وآخر امل للذئب الزعيم

واليونانيون إذ يقاتلون الترك انما يصبون عليهم حمما من الثأر القديم الهاجع ، الثأر الذى أيقظه فنزيلوس ذئب كريد

والأرمن الذى يقاتلون في صفوفهم ينتقمون اليوم من الاتراك أعداء الامس واليوم ، ويؤملون فى قيام دولتهم على انقاض دولة آل عثمان

وعلى مسيرة أميال من النهر حيث تتعرج التلال وتنحدر الطريق الى انقرة ، نجد جنود الذئب الزعيم جاثمين فى حيثما تتهم الارض أو تنجد . نجدهم فى حالة من اليأس لا شبيه لها فيما قرأنا من صفحات التاريخ . ولـكن ثمة رجلا واحداً يبث فى نفوسهم الأمل وفى قلوبهم الاستبسال والجبروت : هذا الرجل هو الذئب الزعيم . .

فاذا انحدرت مع الطريق المؤدية إلى انقرة رأيت معالم الهزيمة فى كل مكان :

فهذه اسر تفر الى قلب الاناضول على ظهور الخيل أو بعربات تجرها الثيران

وهؤلاء تجار أو زراع يصفون أملاكهم بسرعة ويحزمون حقائبهم استعدادا للفرار

وأولئك ذئاب المجلس الوطنى بعثوا بزوجاتهم وأفلاذ أكبادهم الى حيث الأمان ووقفوا على باب المجلس يسمعون دوى القنابل وازيز الطائرات ويصرون على انيابهم صارخين : « الويل للذئب الزعيم اذا عاد الينا مدحورا ! ! »

* * *

وهناك فى قرية « آلاكوز » نجد منزلا صغيرا منفرداً يقف ببابه نفر من الحراس الشاكي السلاح ، ونسمع فى الطريق المؤدية اليه وقع حوافر الخيل على الصخور ، وصليل بعض السيوف ، ونرى من حين لآخر ضباطاً وجنوداً يدخلون ويخرجون بوجوه فى صفرة الموت ونظرات دامية وأعصاب تكاد تتحطم

فاذا ولجنا باب المنزل رأينا حارساً مخيفا يقف بباب حجرة القيادة . فاذا ولجنا بابها وقفنا أمام هذا المنظر :

غرفة حقيرة ،أثاث تافه محطم ، سقف يكاد يتداعى ، مائدة كبيرة ، مصباح غاز ، خريطة لتركيا ، أعلام صغيرة مثبتة فوق الخريطة هنا وهناك ، والذئب الزعيم نراه أمام المائدة رهيبا مخيفا . .

كل شيء هادىء فى غرفة الذئب . ولكن العاصفة توشك أن تعصف . .

هوذا جندى يدخل عليه برسالةطويلة . فيتناولها الذئب دون أن ينظر فى وجهه ، ويقرأها ، فيلهث . .

العدو اكتسح الترك حيث الجناح الايسر !

الذئب يقطع أرض الغرفة جيئة وذهابا . ثم يعود الى المائدة ويتطلع الى الخريطة. ثم يقتلع بعض الاعلام الصغيرة من أماكنها ويثبتها فى أماكن أخر . ثم يصدر أمره بالهجوم من حيث ثبتت الاعلام . فيهجم الأتراك فيكتسحون العدو ايما اكتساح !

وبعد بضع ساعات :

رسالة أخرى يقرأها الذئب ، فليهث . .

ثم يثبت الأعلام فى أماكن جديدة . ويصدر أمره بالهجوم . فيهجم الاتراك ولكنهم لا يكتسحون العدو فى هذه المرة . فيقوم الذئب من فوق المائدة ويقفز بجواده إلى حيث المعركة الدائرة . ولا يكاد يشرف عليها ويراه الجنود حتى يستميتوا فى الدفاع ويردوا اليونان على أعقابهم منهزمين !

* * *

وفى منتصف الليل :

كل شيء هادىء فى غرفة الذئب الزعيم

الذئب الزعيم غارق فى تأملاته الحربية . والأعلام الصغيرة تكاد تغطى نهرسقاريا والتلال الملتفة حوله

عارف يدخل عليه . ثم عصمت . ثم فوزى

وكل واحد من هؤلاء الذئاب يصف هول المعارك ويخشى الهزيمة فى الغداة . .

ولـكن الذئب الزعيم لا يتوقع الا النصر . . ويقول بصوته الذى يتحدر من ثمه كالرصاص : « انظروا . . ألا ترون تلك الراية المشرفة على العـدو هناك ؟ فوق هذه الراية سوف ننتصر على اليونانيين . . »

يقولها هكذا على البديهة دون أن يتدبرها . .

ومن عجب أن يحقق الغد نبوءته المعجزة !

* * *

وفى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل :

كل شىء هادىء فى غرفة الذئب الزعيم

الذئب الزعيم متمدد على فراشه الخشن بحذائه الضخم ولباسه العسكرى ومعطفه الرمادى الطويل . .

وعلى كثب منه المائدة الـكبيرة ، وعليها مصباح الغـاز ، والخريطة ، والاعلام الصغيرة ، ومئات من اعقاب السجاير

إنه ينام . وعشرات الألوف من جنوده ينامون فى خط النار استعداداً للغد . .

وفى الساعة الخامسة صباحاً :

الذئب الزعيم يقوم من نومه ليعاود الـكفاح

والشمس تشرق عليه وهو ممتط جواده فى طريقه الى خنادق الجيش

لم يعد مكانه فى غرفة القيادة فى « آلاكوز » بل وجب عليه أن يعيش مع جنوده فى خنادقهم رغم الحاح القواد عليه بوجوب الابتعاد عن مراكز الخطر

لقد بدأت المعارك فى صباح يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ وهاهى شمس ٦ سبتمبر تشرق دون أن يظفر بأعدائه . فهل تظل المعارك هكذا أبد الآبدين ؟

لقـد دحر اليونانيون غير مرة . ولـكن ظهر أن قواتهم لا ينضب لها معين . فهم فى كل يوم يعاودون الهجوم بقوات جديدة . وذخائرهم ـ لوفرتها ـ تطمعهم فى النصر آخر الأمر . فهل ينتصرون ؟

الذئب الزعيم يقفز بجواده فوق التلال والمرتفعات وفى يده منظار الميدان ، ويقيس الابعاد ويدبر الخطط الحربية بسرعة ، ويزور تلك الفرقة زيارة مفاجئة ، ثم ينطلق

الى الفرقة التالية فيتفقدها ، ثم الى خط النـار حيث يتحدى القنـابل والرصاص ، ثم يعود الى الفرق مرة أخرى ، ثم ينزل عن ظهر جواده ويتحدث الى ضباطه اركان الحرب ، ثم يقف هو وعصمت وفوزى ويناقشهم فى خططهم الحربية ، ثم يعالج بنفسه اطلاق احد المدافع ، ثم يقفز الى التلال حيث يهجم اليونانيون على الاتراك ويكادون يجلونهم عن أماكنهم ، فيجد جنوده على وشـك الفرار ، فيحمسهم ويخطب فيهم ، ويهددهم بالقتل ، ثم يعود فيتوسل اليهم ألا يفروا ، فتنقلب الهزيمة آخر الامر نصراً . . .

وفى الليل تراه فى كل مكان

وقبيل الفجر بساعات تراه بحذائه الضخم ولباسه العسكرى ومعطفه الرمادى الطويل متمدداً على أرض الخندق ، أو تحت عجلة مدفع من مدافع الميدان . . هكذا حيثما اتفق !

وفى الصباح المبكر تراه حيث يجب أن يكون . تراه فى مناطق الخطر . فنعجب كيف توحى اليه غريزة الحرب أن يكون هناك فى الساعة التى يجب أن يكون فيها هناك

وينقضى النهار بطوله والذئب الزعيم يقفز بجواده فوق المرتفعات ويزور الجنود فى الخنادق ويحادث الضباط ويناقش القواد ويساهم فى اطلاق المدافع ، ويرى حوله آلافا من الجثث فلا يعيرها التفاتا . ويسمع آلاف الآهات فلا تختلج احدى عضلات وجهه ولا يبدو عليه شىء من التأثر . .

انه يحارب . والحرب ضريبة الحياة على الانسانية . وهذه الجثث يدفعها الذئب الزعيم لعزرائيل عن طيبة خاطر . أما الأنين والتأوه فضعف فى القلوب وخور فى العزائم لا يود الذئب أن يراه ، ويصم أذنيه دونه . .

* * *

وفى صباح ذات يوم تشرق الشمس على خط النار فيبدو كما هو ، ولا يرى فيه القواد أو الجنود شيئاً جديدا

ولـكن الذئب الزعيم يتطلع اليه بمنظاره المـكبر فيرى هذا الشىء الجديد الذى لا يتاح الا لمن كان ذئباً أو زعيما . .

انه يرى ان اليونانيين على وشك الهزيمة والتقهقر !

ومن العبث أن تناقشه فى رأيه هذا فهو لا يقبل النقاش ولـكن يأمر بالهجوم ، والهجوم بشدة . .

فيهجم الأتراك ، ويستميت اليونانيون فى الدفاع عن خطوطهم . بيد أن جحافلهم لا تقوى على القتال ، فهى لذلك تغادر الميدان فى ١٣ سبتمبر وتعبر نهر سقاريا ممعنة فى الفرار !

فيبتسم الذئب الزعيم وهو واقف فوق تلال من الجثث والأشلاء

فقد انتصر !

« لم ننتصر بعد . . »

انهزم اليونانيون فى « سقاريا » وارتدوا الى مواقعهم الأولى حول اسكيشهر وعاد مصطفى كمال الى أنقرة

انقرة تستقبل بطلها استقبال الغزاة الفاتحين . والأتراك الذين كانوا يسمعون أمس قصف المدافع فيراودون أنفسهم بين البقاء والفرار ، يحملون رجل الساعة على الأعناق ويهللون ويهتفون فى فرح جنونى

والمجلس الوطنى الكبير يجتمع ويقرر منح مصطفى كمال لقب « الغازى » ورتبة « الماريشالية »

وبعد أسابيع :

أعضاء المجلس الوطنى الكبير يقولون : لقد انتصرنا . فلنعقد مع الأعداء هدنة ومع الحلفاء معاهدة نستعيد بها استقلالنا المفقود

ومصطفى كمال يقول : لم ننتصر بعد ، وإنما أوقفنا تقدم العدو باحدى المعجزات ، أما الهدنة والمعاهدة فلن أسمح بهما حتى نقذف بالعدو الى مياه البحر الابيض !

وتنقضى أسابيع فى صراع بين أنصار الوقوف فى منتصف الطريق والأمل فى المعاهدات الرخيصة ، وبين الرجل المصمم على السير الى آخر المرحلة واملاء شروط الصلح على العدو المغلوب

وأخيراً ينتصر مصطفى كمال . ليبدأ صراعاً آخر

فالنواب يقولون : لم لا تهاجم العدو مادمت مصمما على اجلائه عن الأناضول ؟ فلا يجيبهم مصطفى كمال بل يستعد للقتال باذلاً جهود الجبابرة فى ترميم أنقاض الحرب وتجييش الجيوش وشراء الأسلحة والذخائر ، ويعقد مع الروسيا معاهدة « قرص »

ومع فرنسا « ميثاق أنقرة » الذى استعاد بمقتضاه ثمانين الف جندى أسير ضمهم الى الجيش الوطنى ، ويشترى من ايطاليا وفرنسا عشرات الألوف من البنادق . ويحمل الشبان على التطوع فى الجيش . ويحمس الأتراك الراغبين عن القتال بخطبه النارية ، ويقاوم رغبات السياسيين فى الصلح ، ويضرب على مؤامراتهم بيد من حديد . ويسمع إذ ذاك أن أنور رجل الخيال والخطط الجنونية أصبح أميراً فى بخارى ، وأن جمالا أصبح مستشاراً فى حكومة افغانستان ، وتصله منهما برقيتان يقول أنور فى احداهما انه مستعد للانضمام الى القوات الوطنية بجنوده من التركستانيين ، ويقول جمال فى الأخرى انه يمهد لتحالف عسكرى بين تركيا وأفغانستان ، فيمزق البرقيتين فى غضب واحتقار ، ويهتف بصوت كعواء الذئب : « لن أسمح لأنور وجمال بالعودة الى تركيا ، ولن أسمح لتركيا أن تستقل الا بجهاد أبنائها ! »

* * *

وفى الثلث الأخير من شهر أغسطس سنة ١٩٢٢ يزور مصطفى كمال خط النار زيارة قصيرة يسر فيها الى عصمت وفوزى بأن يستعدا للهجوم فى يوم ٢٦

ولكى يحيط حركاته بالكتمان ويبعدها عن الشبهات يأمر باقامة مباراة فى كرة القدم بين جنوده . . وفى ساحة اللعب يجتمع بالقواد ويفضى اليهم بتفاصيل الهجوم

ثم يعود الى أنقرة فلا يشعر أحد بأن ثمة شيئاً جديداً . . بل إن داهية الحرب ليدعو سائر النواب الى حفلة ساهرة فى ليلة ٢٦ أغسطس ، فى ليلة الهجوم العتيد . .

وفى تلك الليلة بالذات يعود الذئب سراً الى خط النار . .

الى الامام !

فى الساعة الرابعة من فجر ٢٦ أغسطس يصدر الأمر التالى :

« أيها الجنود . . الى الأمام . . الى البحر الابيض ! ! »

فيهجم الجنود على « دوملوبنار » ويأخذون العدو على غرة ، ولا تغرب الشمس فى هذا اليوم المجيد حتى يشطروا الجيش اليونانى الى شطرين . . .

والقائد الأعلى لجيش العدو يسقط أسيرا هو وجميع أركان حربه . .

قضى الأمر . وانهزم اليونانيون أشنع انهزام !

هاهي ذى فلولهم ترتد على أعقابها فى فرار مخجل مشين . الغزال لا يلحق بهم اذ يفرون . الدمار والموت والنار فى كل قرية عنها يرتدون . شيوخ وفتيان ونساء تبقر بطونهم أو يذبحون

وفرسان الترك فى أثر العدو المنهزم يرون كل ذلك فيصابون بجنون الحرب فلا يرحمون . يقتلون ولا يأسرون . وفى الدماء يخوضون . وعلى الاشلاء يسيرون . . .

ونساء الترك ينقلن ذئابا يذدن عن أعراضهن ويحملن السلاح مع الرجال ويتقدمن الصفوف فاتكات مقاتلات . .

وفى احدى القرى يحملن رءوس الزجاجات المحطمة ويقتلن بها مئات من اليونانيين والطيور الجوارح تحلق فوق الجثث ثم تنحدر اليها لتشارك الذئاب والكلاب فى وليمة الموت . .

والهواء تسممه روائح الجثث المنتنة فى منطقة بين « دملو بنار » والبحر الابيض ذرعها مائتان من الاميال . .

ذئب انقرة على ظهر جواده يسير فى أثر العدو فوق الانقاض والقرى المحترقة وعشرات الألوف من الاجداث دون أن تطفر دمعة من عينه أو يبدو على وجهه الضامر ظل من التأثر !

إنه يسير ويسير . . ولا يسمع أنين هذا الجريح . ولا حشرجة هذا الطفل ولا نواح تلك الأم الثاكلة ، ولا لعنة هذا الشيخ التى يصبها على العدو ، ولا عواء الذئاب ، ولا نباح الكلاب . .

إنه يسير ويسير . . ومن حوله أرواح تزهق ، وقرى تحترق ، ومساجد تنهار ، ومزارع لا تبقى فوقها نابتة ، ونسور تشيل من فوق الرمم وتحلق فى الفضاء . .

إنه يسير ويسير . . عشرة أيام كاملة حتى تبدو ازمير من بعيد . .

انه يسير . . حتى يدخل المدينة فى عاصفة من التهليل والهتاف ، ويسير فى طرقاتها فى موكب عسكرى فرسانه قد جردوا سيوفهم فتتصاعد الهتافات من صميم الافئدة ، وينهال الاتراك على قدميه ويديه وجواده تقبيلا وبكاء . .

انه يسير حتى يرى مياه البحر الابيض . . فيبتسم !

وكما تلمع البرقة الخاطفة ثم تستسر فى بهيم الليل ، تختفى هذه الابتسامة ويعود الذئب كما كان وحيثما كان حديداً جليدا

الخدعة البارعة ! !

مصطفى كمال لا يزال غير راغب فى الصلح مع أنه قـذف باليونانيين الى ميـاه البحر الابيض

انه مصمم على اجلاء آخر جندى أجنبى عن تركيا ليتمكن بعد ذلك من املاء شروط الصلح على الحلفاء ـ لا مفاوضتهم عليها

ومع ان اليونانيين خرجوا من الاناضول ، فان جيوشهم لا تزال فى تركية أوربا ، فى تراقيا

ومصطفى كمال مصر على عبور الدردنيل وافناء الجيش اليونانى عن آخره . .

ولـكن ثمة مشكلة دولية تقوم فى طريقه ، فالانجليز معسكرون فى منطقة جناق قلعة ، وقد رفضوا السماح للجيش التركى بالمرور الى تراقيا . وهاهم أولاء يقفون أمام طلائع الاتراك ويهددون باطلاق النار . .

المجلس الوطنى الـكبير فى انقرة فى أزمة عصبية . . والنواب فريقان : فريق يصر على وجوب عقد الهدنة والشروع فى مفاوضة الحلفاء ، وفريق يرى وجوب الهجوم على الانجليز والاشتباك معهم فى حرب طاحنة ، وليـكن ما يكون !

ويقوم بين الفريقين صراع دبلوماسى خطير . فيقف مصطفى كمال فى المجلس بين التيارين المتعارضين ، ويقول انه لا يقبل رأى هذا الفريق ولا رأى ذاك ، فالصلح قبل اجلاء آخر جندى أجنبي عن أرض تركيا نكبة فادحة . والاشتباك مع الانجليز فى الحرب نكبة أفدح . . فلينتظروا قليلا ريثما تهدأ العاصفة . .

ثم يعود الى منزله فيستعرض الموقف من أوله الى آخره ويرسم خططاً عديدة يناقشها واحدة بعـد الأخرى حتى يستقر على خطـة بارعة فيصدر الأمر الى القوات التركية بالتقدم الى خنادق الانجليز خافضى بنادقهم معلنين رغبتهم عن القتال . !

ويتقدم الجنود الأتراك شطر الخنادق الانجليزية بخطى وئيدة وبنادقهم مخفضة الى أسفل ، فيرتبك الانجليز أمام هذا الزحف السلمى العجيب ويستشيرون ضباطهم فيما يجب عليهم عمله ، فيستشير الضباط قوادهم ، فيستشير القواد قائدهم الأعلى السير شارلس هارنجتون ، فيفغر هارنجتون فاه دهشة ، ويرتبك بدوره ! !

ولا عجب فى ذلك فهارنجتون لا يقدر على مقاومة الأتراك . ثم إن الرأى العام

الانجليزى ينكل الآن بكل من يمهد لحرب جديدة . والحلفاء يخشون أن يؤدى اشتباك الاتراك مع الانجليز الى حرب دولية أخرى . .

مصطفى كمال يشاهد فصول هذه الرواية التى ألفها تمثل أمامه على مسرح السياسة، فيبتسم . وعندما يدخل عليه فرانكلن بويون ممثل فرنسا الرسمى ويطلب اليه فى الحاح وخوف أن يوقف زحف جنوده مخافة أن تنطلق فى الفضاء طلقة طائشة فتؤدى الى الحرب . . فيقول مصطفى كمال ببرود انه ينتظر هذه الطلقة بصبر نافد . . فيقف شعر فرانكلن بويون عندما يتصور هول الحرب المنتظرة ، ويحسب أن كمالا يريد اعلان حرب جديدة تؤيده فيها الروسيا . . فيصرح له بكل شىء ويسلم بكل شىء :

فاليونان يتعهد الحلفاء باجلائهم عن تركية أوربا . وجيش الاحتلال يتعهدون بسحبه. والصلح يتعهدون بقبوله . .

وامام إصرار فرانكلن بويون وتوسلاته الهستيرية يقبل مصطفى كمال أن يوقف تقدم جنوده . . ويكون ذلك منه تفضلا على الحلفاء ومنة يقابلونها بالشكر وعرفان الجميل !

وفى قرية « مودانية » تعقد الهدنة فى ٩ أكتوبر على يدى عصمت . وبعد أيام لا يبقى فى تركية أوربا يونانى واحد ! !

مصطفى كمال كما أعرفه

تمت المعجزة . وانتصر مصطفى كمال . ولم يبق من آثار الاحتلال الا جيش بريطانى هزيل فى استامبول أوشك أن يستقل بوارجه الى بلاده ، وخليفة خائن أوشك أن ينبذ نبذ النواة

ومصطفى كمال الآن رجل الساعة . رجل الشرق . رجل العالم

وهذا الرجل النحيل بوجهه الضامر وعينى الذئب المتألقتين يقف على قنة الانتصار والفخار وسط هالة من المجد

والأتراك يهتفون له من أعماق قلوبهم : « يعيش الغازى مصطفى كمال ! »

والشرقيون يهتفون : « يعيش البطل الشرقى ! »

والاسلام يهتف : « يعيش سيف الاسلام » !

ومن مصر ، وسوريا ، والعراق ، وإيران ، وافغانستان ، والهند ، والصين ، وجزر الهندالشرقية ، والحجاز ، واليمن ، والسودان ، والحبشة ، وتونس ، والجزائر ومراكش ، تنهال البرقيات ، والدعوات ، والسبح ، والمصاحف ، والسيوف ، والخناجر المرصعة بالجواهر . . .

وفى كل قطر من هذه الأقطار ، وفى كل مدينة وقرية ، وفى كل منزل ، يمجد المسلمون بطل الشرق والاسلام

ومئات الملايين من المسلمين الذين خرجوا من الحرب العظمى مستعبدين مضطهدين ، يتمنون لو يعاود التاريخ سيرته الأولى ، ويحمل الغازى مصطفى كمال سيف الاسلام ولواء الاسلام ، ويدعو سائر المسلمين الى الجهاد فى سبيل الحرية ، فى سبيل الشرق ، فى سبيل الاسلام . .

ودعاة الأمبراطورية العثمانية من الاتراك يتمنون لو يصبح قائدهم محمداً وفاتحاً آخر يشرع فى بناء امبراطوريتهم من جديد . .

وفى وسط هذا العالم الزاخر المتأجج ، والحماسة المستعرة ، والسيل العرم ، والشرق المضطرم ، يقف الرجل النحيل بوجهه الضامر وعينى الذئب المتألقتين كما كان وحيثما كان حديداً جليداً . .

فأما الراغبون فى بعث الامبراطورية العثمانية فجوابه عليهم : «لا . . دعوا العظام النخرة فى قبورها ولا تزعجوا الأموات فى عالم الأموات . . نحن لا نحيي الموتى ، ولا نشيد الأنقاض الخربة من جديد»

وأما الراغبون فى الجامعة الاسلامية فنصيبهم منه : « لا . . أنا لا أومن بالجامعة الاسلامية فى عصر نارى حديدى لا يعرف الا دولا مستقلة وحدوداً معترفا بها فى القانون الدولى العام . فان كان ثمة اتفاق فليكن بمعاهدات هجومية دفاعية ، ومثل هذه المعاهدات لا أعقدها الا مع الدول المستقلة ذوات السيادة والقوة ، والمصلحة التى أراها أمامى كما أرى أن ١ + ١ = ٢ »

وأما الراغبون فى المساعدة فيقول لهم : « لا . . كيف نساعدكم ونحن أنفسنا فى حاجة الى المساعدة ؟ ! أنا أعلن على رءوس الاشهاد انى لن أساعد أحداً . وكل ما هنالك اننى أتمنى لسائر الشرقيين الخير والحرية »

وأما الراغبون فى بعث الاسلام بالسيف والجهاد فجوابه عليهم : « لا . . لسنا فى

عصر الحروب الصليبية . دعوا الاسلام وحده وجاهدوا انتم لتستقلوا ، فاذا نلتم استقلالكم ورأيت على خريطة العالم عشرات من الدول الاسلامية المستقلة أيقنت أن الاسلام بعث من جديد . أما الجهاد فى سبيل الاسلام وأنتم مستعبدون فحرب تعلنونها على الاسلام . .

وأما البلاشفة ، أولئك الذين جاءوا بنظام عالمى جديد ، وعولوا على اتخاذه بوقاً شرقياً وخليجاً يعبرونه ليصلوا منه الى الشرق فجوابه عليهم : « انتم تقولون انكم سترفعون عن الطبقات المستعبدة نير الاستعباد . فأقول لكم انى لا أعرف طبقات مستعبدة (بالكسر) وأخرى مستعبدة (بالفتح) ، وانما أعرف طبقات تسمح لغيرها بأن تستعبدها . ومثل هذه الطبقات يجب أن تفنى فى الرق والاستعباد . . دعونا من البلشفية فأنا لا أومن بها . وتعالوا نتفق على الهجوم والدفاع كما تفعل سائر الدول الغربية »

كلمة « نعم » لم يقلها هذا الجبار لأحد قط . . ولو كان أحد غيره فى مكانه لأسكرته نشوة الظفر ، وأخرجه الشرق المضطرم عن طوره ، فراح يتخبط فى سياسات خرقاء ، كتلك التى سارت عليها الامبراطورية العثمانية فى أواخر عهدها ، فيتحطم ، ويحطم معه الشرق أجمع

وانى لأراه فى هذه الساعة واقفاً فوق قنة الانتصار والفخار وحوله هالة المجد ، فأرى كتلة من الحديد الجليد ، وأرى عينين متألقتين ولكنهما لا تبصران إلا حدود تركيا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وأسمع كلمات كأنها الفولاذ المصبوب :

« ألا بعداً للعاطفة . ! ألا سحقاً للحماسة الزائفة والتعصب الدينى الكليل الزائف ، لن أكون بطلا شرقياً ، ولا بطلا اسلامياً . . لن أقاوم الغرب . . فقد رأينا الويل من عداء الغرب . . لن أقاوم المسيحية فقد قاومناها قرونا وها نحن أولاء نقف أمامها مهزومين مدحورين . .

« الجامعة الاسلامية والجهاد الدينى يوقظان عداوة الغرب وتعصبه ، فيطالبنا أبداً بأن نعيش له عبيداً . . سأعيش ويعيش الأتراك لتركيا وحسب . . حدودنا لا نتجاوزها . . صداقة الغرب لابد منها . . مجاراة الغرب فى مدنيته واختراعاته وعلومه ديننا . . أما الاسلام ، دين الله ، فسوف أمحو من معالمه الدنيوية ما يثير تعصب الغرب وعداوته . . ألا بعداً للشيوخ المتعصبين الجاهلين . . ألا بعداً للتعصب وكل ما يمت الى التعصب

بسبب . . ألا بعداً للخلافة . . ألا بعداً لكل ما يعيد الى الأذهان عهد الخلافة فيوقظ عداوة الغرب الهاجعة .. الدين بيني وبين ربي ، أما الدنيا فبيني وبين الغرب ، ولأفصلن بين ديني ودنياي ما دمت حياً . . تلك رسالتي للعالم ، وللشرق خاصة .. »

* * *

وهناك على رابية بعيدة في التركستان ترى قبراً كقبور الأولياء يحج اليه التركستانيون ويبللون صخوره بدموعهم الحرى

تحت هذه الصخور عظام أنور : رجل العاطفة ، رجل الحماسة الزائفة ، رجل الخلافة ، رجل الامبراطورية ، رجل الجامعة الاسلامية . .

قضى هذا الرجل نحبه شاهراً سيف الاسلام ـ سيف الشرق المجاهد ـ في وجه الروسيا ـ في وجه الغرب المتعصب !

فماذا كان نصيبه الا الدموع ! ؟

ألا تعساً لأولئك الباكين ولتلك الدموع الحرى ان كانت العاطفة والحماسة الزائفة والخلافة ، والامبراطورية ، والجامعة الاسلامية تؤدى بالشرق الى قبر كقبور الأولياء يحج اليه الضعفاء باكين مترحمين !

تم الكتاب الثاني